فايز نجيب إسكندر

بنيامين الأول
البطريرك الثامن والثلاثون
بين نهاية العصر البيزنطى وبداية الفتح الإسلامى لمصر
(٦٢٣ـ٦٦٢م)

وقفت مصر وراء المسيحية منذ فجر ظهورها فى أخريات التاريخ القديم ، إذ وجدت فيها حقلاً خصباً ترعرعت فيه غرسها بسرعة فائقة. ولم يجد المصريون فى اعتناق الدين الجديد صعوبة كبيرة على عقولهم وأفهامهم ، بل وجدوا فى المسيحية سمواً على أفكارهم الدينية القديمة التى ألفوها. وهكذا تغلغلت العقيدة الجديدة تغلغلا سريعا فى جميع الأوساط المصرية ، هذا بينما كانت الإمبراطورية الرومانية القديمة تمر آنذاك بمرحلة الاحتضار ، بسبب الأزمات العديدة المتعددة التى كان عليها مواجهتها من سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وفكرية ودينية وغيرها. وفى غضون ذلك ، واجه مسيحيو مصر بثبات بالغ وعزيمة قوية كافة ألوان الاضطهاد على يد أباطرة الرومان ، الذين حاولوا القضاء على الدين الجديد وإبادة معتنقيه ، فنال الآلاف من المصريين شرف الشهادة. وإمعاناً فى التحدى ، سمى الأقباط التقويم المصرى " بتقويم الشهداء "؛ إذ اتخذت الكنيسة القبطية بداية حكم دقلديانوس DIOCLETIEN (٢٨٤ـ٣٠٥م) وهى سنة ٢٨٤م بداية لهذا التأريخ. وهكذا أكتوى المصريون بنار الاضطهاد وكافة ألوان التعذيب على أيدى الأباطرة الرومان. وتعد هذه المرحلة الأولى ، وتتمثل فى مرحلة اضطهاد الأغلبية الوثنية للأقلية المسيحية. وحظى الوثنيون آنذاك بمساندة ومناصرة اليهود لهم والإمبراطور والإمبراطورية الرومانية. وقد شغلت تلك المرحلة القرون الثلاثة الأولى من المسيحية حتى نهاية عهد دقلديانوس.

وبعد اعتراف قسطنطين الكبير (٣٠٦ـ٣٣٧م) سنة ٣١٣م. بالمسيحية كإحدى الديانات المصرح بممارسة شعائرها الدينية فى ربوع إمبراطوريته ، بدأت المرحلة الثانية ؛ إذ جاء دور الأغلبية المسيحية لتضطهد الأقلية الوثنية.

ولكن مشاكل المسيحية لم تنته تماما بزوال الوثنية وزوال عصر الاضطهادات ، إذ سرعان ما ابتدأ الانقسام الدينى بين المسيحيين أنفسهم ، ومن ثم بدأت المرحلة الثالثة حيث أخذ المسيحيون يضطهدون بعضهم بعضا بسبب الخلافات المذهبية ، واندلاع الشقاق الضارى بين علماء اللاهوت فى المجامع المسكونية. وبدأت أعراض الانفصام تظهر بينهم ، وغرست بذور المذاهب المتعددة فى العالم المسيحى على أثر ذلك. وقد حاول أباطرة الإمبراطورية البيزنطية القضاء على هذا الانقسام المذهبى ، إلا أن اتساع شقة الخلاف بين الشعوب المسيحية الخاضعة للسيادة البيزنطية ـ ومن بينها مصر ـ كان ليس فقط بسبب اختلاف التفسير اللاهوتى ، بل أيضا لظهور عوامل التفرقة السياسية ، والضغوطات الاقتصادية ، وسعى تلك الشعوب للاستقلال ، وظهور قوى جديدة لها وزنها على مسرح الأحداث التاريخية ؛ كل ذلك أدى بالتالى إلى إخفاق أباطرة الإمبراطورية البيزنطية فى مهمة إعادة توحيد ربوع إمبراطوريتهم ، بل وتمزقها فى نهاية المطاف إلي أشلاء. ولقد عايش تلك الأحداث الانتقالية الجارفة فى كافة مناحى الحياة المصرية الأنبا بنيامين الأول (٦٢٣ـ ٦٦٢م) ، إذ عاصر حقبة الاحتلال الفارسى لمصر، وعودتها إلى الحكم البيزنطى من جديد ، ثم مرحلة إنهاء السيادة البيزنطية ، وانتقال مصر إلى أيدى الفاتحين المسلمين المتسامحين.

والبطريرك[(١)] بنيامين ولد فى قرية " بيرشوط "[(٢)] وهى حاليا كفر مساعد التابعة لإيتاى

---

(1) " بطرك " و " بطريرك " وجمعها " بطاركة " حسب تهجئة القلقشندى لهذا اللقب. أنظر: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ـ القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩٢٠م ـ جـ ٥ ، ص ٤٧٢ ، جـ ٨ ، ص ٤٢.

(2) فى هنرى مونييه HENRI MUNIER " فرشوط " FARSHOUT ، وذكر أن بنيامين تولى كرسى البطريركية خلفاً لاندرونيقوس ANDRONICUS سنة ٦٢٤م ، هذا بينما كان البطريرك الملكانى المدعو يوحنا المتصدق JEAN L'AUMÔNIER. قد لاذ بالفرار من مصر بعيد الغزو الفارسى لها ، وتوفى فيما بعد فى جزيرة قبرص. أنظر:

HISTOIRE DE LA NATION EGYPTIENNE, PREMIÈRE PARTIE, L'EGYPTE BYZATINE DE DIOCLÉTIEN À LA CONQUÊTE ARABE, PARIS, 1933, P. 68.

فى حين ذكر الأنبا يوساب ، أسقف فوة ، وهو من مؤرخى القرن الثالث عشر الميلادى فى مصدره " تاريخ الآباء البطاركة " أن " بنيامين بن اناس كان من الموسرين من أهل البحيرة ، وكان من بلد تدعى بيرشوط ".
(أنظر: تاريخ الآباء البطاركة ـ نشر الراهب صموئيل السريانى ونبيه كامل ـ القاهرة ١٩٤٢ ـ ص ٤٨.

البارود بالبحيرة[1] وهو بذلك أول بطريرك قبطى غير سكندرى. وكان سليل عائلة تقية ، اشتهرت بالثروة الكثيرة والنفوذ الواسع، مما ساعده فيما بعد على القيام بأعمال عظيمة لخير الكنيسة المصرية، وجعل له شهرة فائقة[2].

أنظر أيضاً: ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ــ نشر الأنبا صموئيل ــ القاهرة ١٩٩٩ ــ جـ ١، ص ٨٤) وقد نشر رينيه باسيه RENÉ BESSET مصدراً بعنوان " السنكسار القبطى اليعقوبى " إعتمد فى إعداده على مخطوطين الأولى تعود الى القرن الرابع عشر الميلادى والثانية الى القرن السادس عشر جاء فيه أن " هذا الأب [أى بنيامين البطريرك] كان من أهل فرشوط " كما جاء فى هنرى مونييه. وكاد الباحث ينزلق الى الخطأ بترجيح " فرشوط " على " بيرشوط " الذى ذكرها الأنبا يوساب وساويرس بن المقفع. إلا أن التدقيق فى موقع فرشوط حسب ما أورده البغدادى فى أنها قرية كبيرة على شاطئ غربى النيل من الصعيد وليس البحيرة كما أجمعت كافة المصادر جعلنا نؤكد " بيرشوط" على "فرشوط". (أنظر البغدادى: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ــ تحقيق على محمد البجاوى ــ القاهرة ١٩٥٥ ــ جـ ٣ ، ص ١٠٢٨). وقد جاء فى "قاموس آباء الكنيسة وقديسيها ــ مادة البابا بنيامين الأول ٣٨، ص ١٧٣" أنه ولد فى قرية بيرشوط، وهى حاليا كفر مساعد، التابعة لإيتاى البارود بالبحيرة، وقد أنفرد القمص تادرس يعقوب الملطى بذلك التحديد الدقيق دون غيره من المصادر والمراجع. والملاحظ أن السنكسار الذى شارك فى وضعه كل من الأنبا بطرس الجميل، والأنبا ميخائيل والأنبا يوحنا جاء فيه " كان هذا الأب [أى بنيامين] من البحيرة من بلدة برشوط [وصحتها بيرشوط] وكان من أسرة غنية" أنظر: كتاب السنكسار القاهرة ١٩٧٨ ــ جـ ١ ، ص ٢٤٩ وجاء فى أبى المكارم أن بنيامين "... من أهل البحيرة من ضيعة ببرسوط [وصححت فى حاشية رقم ٢ إلى برشوط، نقلاً عن ابن دقماق] الذى ذكر أنها من الأعمال البحرية". أنظر: تاريخ الكنائس والأديرة فى القرن ١٢ بالوجه البحرى ــ إعداد الأنبا صموئيل ــ القاهرة ١٩٩٩م ــ جـ١ ، ص ١٣٠ وحاشية رقم ٢.

(1) القمص تادرس يعقوب ملطى: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها [ب ، ت ، ث] ــ القاهرة ١٩٩٥ ــ مادة البابا بنيامين الأول ٣٨، ص ١٧٣.

(2) ساويرس بن المقفع: جـ ١ ، ص ٨٤ ، الأنبا يوساب: ص ٤٨. أنظر أيضاً: تادرس يعقوب الملطى: ص ١٧٣ وكذلك:

MASPERO, J. HISTOIRE DES PATRIARCHES D'ALEXANDRIE DEPUIS LA MORT DE L'EMPEREUR ANASTASE JUSQU'À LA RECONCILIATION DES ÉGLISES JACOBITES (518-616), PARIS, 1923, P. 25.

ولما بلغ بنيامين سن الرشد ، باع كل ماله ، وترك أهله وعشيرته ، والتحق راهبا بـدير " قنوبوس "[١] جهة أبى قير ، إلى الشمال الشرقى من العاصمة الإسكندرية[٢] ، وكان هذا الدير وسط بستان من النخيل على مقربة من شاطىء البحر المتوسط ، ويعد من الأديرة القليلة التى لم يهدمها الفرس على عروشها ، وإن كانت لم تسلم من التخريب ، ومن النهب والسلب[٣]. وهناك تتلمذ بضع سنين على يدى ناسك شيخ يدعى ثيوناس THEONAS فحظى برعاية أبيه الروحى. وعكف آنذاك على دراسة الكتاب المقدس ، حتى برع فى علم اللاهوت وبلغ درجة الكمال المسيحى[٤]. كذلك اشتهر بشدة التقوى والبراعة سعيا وراء بلوغ الكمال الروحى الذى تطلع نحوه بقلبه حتى أنه كان يقوم الليل فى العبادة فى كنسية الدير. وبذ معلميه فى العلم والفضيلة والتقشف. ولكثرة إعجاب معلمه به ، اصطحبه معه ليتوكأ ليه خلال سفره إلى الإسكندرية[٥]. ولما انتهيا من تأدية المهمة التى جاءا إلى المدينة بسببها ، ذهبا لزيارة البابا أندرونيكوس[٦]

---

(1) فى " ايسوذورس " ترهب فى " ديرفبريوس " بالقرب من إسكندرية. أنظر: الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ــ القاهرة ١٩٩١م ــ جـ ٢ ، ص ٧٦. وصحة ذلك ما أثبتناه.

(2) فى " رينية باسيه " " ترهب من صغره عند رجل قديس يسمى تاونا فى دير غربى الإسكندرية " أنظر السنكسار ــ القبطى اليعقوبى ، جـ ٢ ، ص ١٤٤. وصحة ذلك " الى الشمال الشرقى من الإسكندرية ".

(3) ساويرس ، جـ ١ ، ص ٨٤ ، الأنبا يوساب: ص ٤٨ ، الأنبا بطرس الجميل: كتاب السنكسار ، جـ ١ ، ص ٢٤٩. أنظر أيضا: تادرس يعقوب: ص ١٧٣. وكذلك: MASPERO, P.25.

(4) من كتابات البطريرك بنيامين عظة طويلة بعنوان " على العرس بقانا الجليل " ألقاها بالقبطية الصعيدية على الأرجح ، ولكنها محفوظة بالقبطية البحيرية. كذلك يوجد له جزء من " مديح للأنبا شنودة " والجدير بالذكر أن رسائله الرعوية أصولها مفقودة ، ومع ذلك ، فقد جمع خمس عشرة رسالة وأخرجها فى شكل مجلد. وفى حربه ضد الهراقطة ، أفرد "رسالته الفصحية لسنة ٦٤٢م " ترجمت الى اللغة العربية ، للتفاصيل أنظر: شنودة ماهر إسحق: الأدب القبطى ــ اللهجات القبطية وآثارها الأدبية ــ القاهرة ١٩٩٨م ــ ص ٨٠.

(5) السنكسار القبطى اليعقوبى: جـ٢ ، ص ١٤٤ ، ساويرس بن المقفع: جـ ١ ، ص ٨٤ : الأنبا يوساب: ص ٤. أنظر ايضا: تادرس يعقوب ملطى: ص ١٧٤ : كتاب السنكسار: جـ ١ ، ص ٢٤٩. وكذلك:
HARDY, E. R., CHRISTIAN EGYPT CHURCH AND PEOPLE, NEW YORK, (1951), P. 183.

(6) كان "أندرونيكوس" ANDRONICUS شماساً من أسرة ذات نفوذ سياسى لكون أبن عمه يشغل وظيفة المقدم فى الديوان الإمبراطورى بالإسكندرية. إتسم بالتواضع والضلوع فى العلوم الدينية والمدنية، لذلك رقى الى السدة المرقسية وأصبح البطريرك السابع والثلاثين فى عهد بطريركيته ، قام الفرس بغزو مصر، وعانوا فى البلاد

(٦١٦ــ٦٢٣م) ANDRONICUS قبل العودة إلى ديرهما فى أبى قير ، فى أقصى الشمال الشرقى من العاصمة ، حيث قدمه ثيوناس للبطريرك ، فأعجب به لما كان عليه بنيامين من القدرة وقــوة النفس والشخصية والعلم. فاستبقاه عنده ، لأنه "رأى يد الله عليه" حسب قول المصادر الكنســية. واضطر ثيوناس إلى العودة وحده إلى الدير. عقب ذلك رسمه خليفة مار مرقس قسا ، فانتظم فى سلك الكهنوت ، ثم اختاره تلميذاً له وسكرتيراً خاصاً ، فكان أمين أســراره ، وموضــع ثقتــه. واشتهر آنذاك باستقامته وغيرته وتفانيه فى أداء عمله بإتقان بالغ وفى صبر وســكون. وســاعد البابا فى تدبير أمور الكنيسة وولاية الشعب المصرى فى أحلك الأوقات ، حين اشــتدت وطــأة الاحتلال الفارسى لمصر ، فأدى القس بنيامين عمله الإدارى والدينى على ما يرام ، فعينه وكيلا له. فازداد مقامه فى أعين البابا ورجال الإكليروس وأعيان الأمة المصرية. ولم يبق فى خدمــة البطريرك أندرونيقوس إلا شهورا ، إذ لما دنت وفاته وذلك فى أوائل سنة ٦٢٣م ، أوصــى أن يكون هو خليفته وأشار على شعبه بذلك الاختيار ، فاحترمت الكنيسة المصرية إرادته.

وصادف اختياره لرئاسة الكرسى الرسولى هوى فى قلوب الناس فحظى بالإجمــاع ، إذ كان محبوبا من الشعب المصرى ، وكان وقت سيامته فى الخامسة والثلاثين مــن عمــره. وتــم الاحتفال برسامته سنة ٦٢٣م ، فى كاتدرائية القديس مرقس الرسول(1) بمدينة الإسكندرية، فأصبح

فساداً ، ونشروا الرعب والفزع والخراب والدمار والتخريب فى كــل مكــان ، وأقــاموا المــذابح للمصــريين الأبرياء ، وتدخل الملك كسرى فى شئون الكنيسة رغم كونه من عباد الشمس ، بل وحاول فــرض النســطورية عليهم. وانتهى الأمر بتمكن الإمبراطور البيزنطى من إلحاق شر الهزائم بهم. للتفاصيل أنظر أبو المكارم: تاريخ الكنائس والأديرة ــ نشر الأنبا صموئيل ــ القاهرة ١٩٩٩ ــ جــ ١ ، ص ١١٤ ؛ الأنبا يوســاب : ص ٤٨ ، ساويرس: جــ١ ، ص ٨٢-٨٤ ، السنكسار القبطى اليعقوبى: جــ٢، ص ١٤٣ ــ ١٤٤: أنظر أيضــا كتــاب السنكسار: جــ١ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ إيريس حبيب المصرى: السنكسار الجديد ــ القاهرة ١٩٨٧م ــ جــ١، ص ٣١٥ - ٣١٦. وكذلك:

MASPERO, P. 357, GUETTÉE, V., HISTOIRE DE L'ÉGLISE, PARIS 1806 T.II, P.419.

(1) كانت " كنيسة المرقسية " نسبة الى القديس مرقس أول كنيسة تشيد فى الإسكندرية وذلك فى القرن الأول الميلادى قبــل استشهاد مرقس بسنوات قليلة شيدت فى منطقة تعرف بأسم "بوكاليا" أو " بوكاليس" بالقرب من الميــنــاء الشــرقى وأعتبر مرقس أول بطريرك لها. والكنيسة لا تزال الــى اليــوم تحمــل اسـم مؤسســها (التفاصــيل أنظــر: CHENEAU, P., LES SAINTS D'EGYPTE, T.I, P.234, 263. أنظر أيضاً: بتشــر أ.ل.: تــاريخ

البابا الإسكندرى الثامن والثلاثون. وظل نحو أربعة عقود يوجه إدارة الكنيسة المصرية فى ظل تقلبات وأحداث سياسية ودينية جارفة ، وواجه آنذاك أحوالا وظروفاً بالغة التغيير. إذ إن مدة بطريركيته كانت أكثر عهد فى تاريخ مسيحيى مصر تقلبا وأعظمه أحداثا ، واشتهر بما كان له على شعبه من سلطان قوى ونفوذ كبير ، وبما بذله من جهد صادق لإعادة تنظيم الكنيسة المصرية. وكانت حياته سلسلة أوجاع وآلام(١).

كان بنيامين شديدا فى الحق ، ساهرا على بيعته ورجال كهنوته ، لا يتساهل فى الأمور الدينية ، ولا يتسامح فى الحرص على الآداب والنظام ؛ فشرع منذ تبوئه الكرسى البطريركى ، فأخذ رجال الكهنوت بالشدة إذا تعدوا الحدود اللائقة بكرامتهم ووظيفتهم الدينية. وكان كثير منهم متهاونين مستهترين ، وأخذ يقضى على الفساد الذى تفشى آنذاك وشمل كثيرا من الشئون ، حتى أن الأساقفة فشلوا فى إصلاح تلك الأحوال بسبب الحرب ومشاغلها وما يصاحبها من تدهور وفساد فى كافة مناحى الحياة. وقد سبق له قبل توليه الرئاسة أن زار " بابليون "(٢) BABYLON،

الأمة القبطية ــ تعريب إسكندر تادرس ــ القاهرة ١٩٠٠ــ جــ١ ، ص ٢٧) هذا بينما يذكر جان جاك باليا أن " كنيسة ثيوناس " هى اول كنيسة تم تشييدها فى الإسكندرية ، وأن مسيحيى الإسكندرية كانوا قبل ذلك يقيمون شعائرهم الدينية فى الخفاء، خاصة فى المغاور والكهوف والمقابر. والرأى الأول هو الأصوب. أنظر:

PALLIA, J., ALEXANDRIE AUX PREMIERS SIÈCLES DU CHRISTIANISME, IN SOCIETE ARCHEOLOGIQUE D' ALEXANDRIE, ALEXANDRIE, 1964, P. 19.

(1) ساويرس: جــ١ ، ص ٨٤ ، السنكسار القبطى اليعقوبى: جــ ٢ ، ص ١٤٤ ، أنظر أيضاً: إيسيذورس: الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، جــ ٢ ، ص ٧٦ ، كامل صالح وفريد كامل: تاريخ الأمة القبطية ــ القاهرة ٢٠٠٠م ــ ص ٤٦ وكذلك:

MÉLINEAU, E., ETUDE SUR LE CHRISTIANISME EN EGYPTE AU SEPTIÉME SIÈCLE, PARIS, 1887, PP. 39-40.

(2) يقع " حصن بابليون " CASTRUM DE BABYLONE جنوب القاهرة فى مصر القديمة. ومنذ بزوغ فجر المسيحية ، شيدت به العديد من الكنائس وراء أسواره بغية حمايتها ، إذ كان سمك أسوار الحصن ثمانية عشر قدماً.شيد من الحجارة والأجر ، وكان محيط الأسوار مربع الشكل. وفى الجانبين الجنوبى والشرقى أربعة أبراج. وقد أطلق عليه العرب أسم " قصر الشمع " إذ كان يوقد فيه الشمع فى رأس كل سنة ، وحين انتقال الشمس من برج الى آخر فى رأس كل شهر. وقد اختلفت المصادر التاريخية فى سبب تسميته حصن بابليون. للتفاصيل أنظر: أبو المكارم: جــ ٢ ، ص ٢٥ ، ٢٩ ، ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ــ تحقيق عبد المنعم عامر ــ القاهرة ١٩٦١ ــ ص ٥٢ ، ٨٤ حاشية رقم ١. وكذلك:

فلما اعتلى الكرسى البطريركى أرسل منشوراً رعوياً إلى جميع أساقفة مصر[١] جاء فيه:

"... إن كل من كان مستهترا أو مملوءا بالأعمال الرديئة ، فليحرم نجس جسده الذى هو هيكل الله. وكل من اعتدى على عذراء ، أو دنس مضجعه فى فراش غيره فليحرم. وإن القسوس والشمامسة[٢] الذين هم مرشدون والذين استبدلوا البركة بالخزى والعار ، إذا كانوا فسقوا قبل رسامتهم ، فليطلق سبيلهم أحرارا ، على أن يتوبوا ولا يعودوا يخطئون. فإذا عادوا إلى نجاستهم الأولى ولم يخشوا بأس ملاك الهيكل ولا القطيع الذى يرعونه ، فلتتجمع رؤوسهم كل خطاياهم التى من قبل والتى من بعد كمملكة نحل العسل ،[٣] وليبعدوا عن الكهنوت ، وأما إذا أدركوا الحقيقة بواسطة رجال عقلاء وأمناء مختارين من بين الشعب وندموا على أعمالهم فليجبروا فقط على عدم حمل ثوب الكهنوت. ومع كل ما قلته بأن يقوم الأسقف بالتحرى عن حالة الإكليريكيين مرة كل شهر ، ولاسيما على الحديثين منهم سالذين لم تمض على رسامتهم عشر سنوات ، وأن

DIEHL, L'AFRIQUE BYZANTINE, PARIS, 1896, P. 547.

(1) AMÉLINEAU, M. E., FRAGMENTS COPTES POUR SERVIR À L'HISTOIRE DE LA CONQUÊTE DE L'EGYPTE PAR LES ARABES, IN. J.A., PARIS, 1888,t.XI, PP. 368-371.

وبحث " أميلينو " المتخصص فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى عنوانه " قطع قبطية تستجلى تاريخ فتح العرب لمصر " ، قامت بنشره المجلة الأسيوية والبحث قائم على مخطوطات قبطية أورد نصها ، ثم ترجمها الى اللغة الفرنسية. وختم بحثه بتفحص شخصية المقوقس. أنظر: AMÉLINEAU, PP. 361-410.

(2) " الشماسية " أحد أضلاع المثلث الكهنوتى منذ العهد الرسولى. فالضلع الأول هو الأسقفية ، ويليه ضلع القسيسية ويكمله ضلع الشماسية. والشماسى كلمة سريانية معناها الخادم ، نظراً لأن درجته أقل درجات الكهنوت الثلاث. وهو تابع للأسقف والقسيس ، وعون ومساعد وخادم فى الكنيسة. للتفاصيل أنظر: يسى عبد السيد: الرتب الكهنوتية فى الكنيسة القبطية ، ص ٩٣ ـ ١٣٨ بحث منشور فى رسالة مارمينا السادسة عشر فى الدراسات القبطية ، جـ٢ ، الإسكندرية ١٩٩٨م.

(3) AMÉLINEAU, 2e FRAGMENTS, P. 369.

يفحصوا أعمالهم ليتأكدوا من حسن سيرتهم ، فإذا لم يوجد أحد من هذا النـوع[١] الـذى يجب خلاصه من هذه الأعمال، فليكونوا أحرارا. وكونوا فى سلام الرب "[٢].

وقد أرسل البطريرك بنيامين هذه الرسالة إلى جميع الأساقفة قبل إقباله عليهم ، ولقد حققت من ذلك أنه حقيقة رئيس أساقفته. وقد فرز عددا من الإكليريكيين فى هذه الأبرشيه ، الـذين لـم يتحروا عن إكليروسهم منذ رسامتهم[٣] .

مما تقدم ، يتضح جليا أنه كان حقاً كبير أساقفة ، يشـعر بخطـورة مركـزه ، ومقـدار المسئولية الكبرى الملقاة على عاتقه. كما كان يقدر تبعات الكرسى الذى اعتلاه ، وبذل قصـارى جهده لتطهير الكنيسة المصرية من المارقين ، كما ظهر جليا من حكم النفى الذى أصدره علـى بعض رجال الكنيسة فى إقليم بابليون.

ولم يكتف بنيامين بذلك ، بل أعقبه بزيارة هذا الإقليم ليطمئن بنفسه على أحوال الكنيسـة فيه. فإنه عندما وصله سار على قدميـه داخـلا بـابليون BABYLONE بصـحبة أنبـا مينـا APA MINA أسقف حصن بـابليون CASTRUM DE BABYLONE وأنبـا بيليهيـب PILIHIU أسقف حلوان وجمع كثيراً من الشعب ، وذهب بهم إلى رجـل اشـتهر بالعصـيان ليحاسبه على جرم ارتكبه. ولقد وردت القصة كاملة فى المخطوطات القبطية السابق ذكرها والتى ترجمها أميلينو AMELINEAU إلى الفرنسية بعنوان " قطع قبطية تستجلى تاريخ فتح العـرب لمصر "[٤] وهذا نصها:

"... ومع كل هذا ، فهو (أى البابا بنيامين) لم ينس الإمرأة الأرملة ، فإنـه مـدحها أمام كل أحد. وبعد ذلك بحث فى المدينة عن البناء الذى[٥] قتل ابن الأرملة وقال: " هـل هو حى يرزق وأين يسكن "؟ ثم قام وسار على قدميه مع جمع كبيـر ومعـه بيليهيـب

(1) AMÉLINEAU, P. 370.
(2) AMÉLINEAU, P. 371.
(3) AMÉLINEAU, P. 370-371.
(4) AMÉLINEAU, P. 371-378.
(5) AMÉLINEAU, P. 371.

PILIHIU أسقف حلوان وأنبا مينا أسقف حصن بابليون لأنهما لما علما بانحداره من الإسكندرية قاصدا الجنوب، حضرا عنده لنوال بركته.

وبعد ذلك وصل إلى مسكن فيليا PHELIA البناء فوجده جالسا يأكل بعض الأطعمة. فنادى عليه قائلا: " هيه. أنت يا معلم! " فارتبك فيليا ولبث فاقدا حواسه. فقال له البابا: " يا هيرودس HERODE الجديد ، كم أخذت فى أمر ابن الأرملة الذى عذبته؟ يا يهوذا JUDAS الجديد[1] الذى أخذ أجرة تسليم المسيح. أين ابن الأرملة التى عهدت إليك به؟ أين وديعة الأرملة المحفوظة لها؟ إنى أرى أن قاضى الظلم يفضل عنك كثيرا " ثم قال: " إنى أنصف هذه الأرملة حتى لا تزعجنى مرة أخرى " فأقضى لها بالعدل. فلماذا أنت أيضا لم تفكر فى أن هذه الأرملة ليس لها عزاء فى الدنيا إلا ابنها الذى ليس له أخ ولا أخت حتى تجد فيها عزاء وسلوى؟ أين وضعت مخافة الله ، أنت الذى سلسلته وهو يبكى أمامك شاخصا بنظره إليك؟ فإنك بلا شك فى هذه البرهة جعلت من نفسك ملكا وهو كان ينظر إليك كوالد كأن[2] يلتمس منك تعليمه وإعداده ليكون معلما يوما ما. إنك وضعته تحت أساسات الحوض وبنيت عليه ، كما أن الرب أسقط روحك تحت أبواب الجحيم. فإذا كنت تبغضه فلا تقتله ، بل كنت تسلمه إلى وثنى أو بربرى أو إسماعيلى حتى كان يأخذه إلى بلد غريبة كما فعل إخوة يوسف الصديق بأخيهم لكنك أخذت الوحشية من رجال أفخيطوس EUCHITOS الذين أخذوا أولاد الأرملة وألقوهم مسلسلين إلى التنين ؛ ولكنهم لم يقتلوهم بأيديهم كما فعلت أنت. كيف أنت تأكل وهو جائع؟ وأنت تمرح على مرقد اليتيم وهو مدفون تحت أساس الحوض. فتأت على رأسك خطايا آبائك منذ السلالة الثالثة[3]. أيها الأسد والدب المفترس ، إنى قد وجدتك اليوم أنت الذى فقت هذه الحيوانات فى الوحشية. هل الأرض لا تتسع لك وله أيها الشرير قايين CAIN؟ فكن ولده فى العقوبة ، ورفيقه فى الجحيم. لقد أشبعت أمه الأرملة عويلا وبكاء ، فأشبع من العويل وصرير الأسنان. أقول لك أنت أيها الوحش المتوحش الذى قتل ابن الأرملة المسكينة المحتاجة ما هو الشر الذى عمله معك أبوه؟ فها هى والدته

---

(1) AMÉLINEAU, P. 372.
(2) AMÉLINEAU, P. 373.
(3) AMÉLINEAU, P. 374.

تعتنى بك لأنك يتيم وفقير ، وتتناول الطعام على مائدتها ، وتتمتع بملابسه وبكـل مـا يصرف من منزله. وفى الحقيقة إنك دقلديانوس DIOCLETIEN الجديد فى تصرفه مع الأسقف بسوتى PSOTI[1]، لأن أهل[2] بسـوتى Psoti عملـوا كـل الطيبـات مـع دقلديانوس ، ولما صار ملكا جزاهم بقتل ولدهم القديس ومع ذلـك فهنـاك فـارق لأن ديقلديانوس كان ملكا. ومن الذى أقامك أنت ملكا أو واليا أو دوقا؟ ومن أين اسـتمديت السلطان على قتل الرجال؟ هل من يـد ديقيـوس[3] DECIUS تسـلمته؟ أو مـن يـد دقلديانوس تسلمت الولاية؟ أو لم يكن ذلك من يد هيرودس HERODE الكبير؟ وها هو معى والى حلوان ! فقل لى من أعطاك حق قتل رجل ؟ ولأى شر قتلته؟ هـل لعنـك؟ أو اتهمك؟ أو دنسك؟ فهو فى كل لحظة كان يدعوك يا أبى وكان يحمل لك العدة كالعبـد لا لشىء ينتظره بل كان يعتبر نفسه أنه يعمل مع[4] والده وهو لم يكمل السنة العاشـرة ".

"ولما قال البابا بنيامين هذا الكلام أمام فيليا PHYLIA البناء ، غلق عليه باب المنـزل. وكان كل واحد ينظر إليه ، وجميعهم ينوحون من تأثير الكلام الذى نطق به البابـا فـى

---

(1) قام الأنبا بسوتى PSOTI بالتبشير بالمسيحية فى الخمس مدن الغربية بليبيا ، وأقيم أسقفا على مدينة بتولومـايس فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ـ٣٠٥م) ، فواجه اضطهاده للمسيحيين ، وانتهى أجله بأن أمسك جندى بسيفه وهـوى على رقبته ، للتفاصيل أنظر: السنكسار الجديد، جـ ١ ، ص ٦٠ ـ ٦٤.

(2) AMÉLINEAU, P. 375.

(3) ولد مسيوس ديقيوس MESSIUS DECIUS سنة ٢٠١م بالقرب مـن سـرميوم SIRMIUM فـى بانونيـا PANNONIE ، وتولى عرش الإمبراطورية الرومانية على أكتاف جنوده سنة ٢٤٩م. وبعـدها تمكـن مـن إحراز انتصارات عديدة على القوط GOTHS الذين كانوا قد اجتاحوا الإمبراطورية. ولقى حتفه سـنة ٢٥١ م فى معركة ضد القوط فى تراقيا THRACE. ولقد أراد ديقيوس أن يوقظ الروح الرومانية القديمة عن طريـق استئصال شأفة المسيحية ، لذا أصدر مرسوماً يأمر فيه جميع حكام الأقاليم بضرورة إعادة ديانة الدولـة الوثنيـة مهما كلفهم الأمر. فشهدت مصر آنذاك اضطهادا من أشد الإضطهادات التى وقعت على المسيحيين المصـريين. للتفاصيل أنظر:

BOUILLET, M. N., DICTIONNAIRE UNIVERSEL D'HISTOIRE ET DE GÉOGRAPHIE, PARIS, 1871, P. 505.

أنظر أيضا: فايز نجيب إسكندر وممدوح مغازى: تاريخ مصر فى العصـر البيزنطـى ـ القـاهرة ٢٠٠١ - ص ٤٥ ـ ٤٧.

(4) AMÉLINEAU, P. 376.

شأن ابن الأرملة. ثم رفع البابا أيديه إلى الله تعالى وقال: " أرجوك يا الله أن تقبل صلاتى هذه بخصوص هذا الباب الذى أغلقته حتى لا يفتح قبل أن يفتح من جديد باب الجحيم. وكما قوضت حصون أريحا JERICHO ، اهدم منزل هذا الكافر عليه وعلى عائلته الملعونة كلها ؛ واقبض عليهم[1] لأنهم أكلوا ثمن ابن الأرملة ، واقض عليهم بأشر ميتة ". وبعد ما أتم البابا صلاته سمع صوتا رهيبا من السماء ، ونزلت نار صاعقة على المنزل كأنها ألقيت عليه من أحد الجيران ، فاشتعلت فيه من جهاته الأربعة ، وسقط على الأرض كما أسقط الشيطان منزل أيوب JOB على أولاده فلم يخلص منهم أحد. ولما حدث ذلك امتلأ الجمع خوفا وأحنوا ركبهم أمام البابا وأظهروا ندامتهم وتوبتهم ، واستولى على جميعهم الفزع والاضطراب الشديد ، لأن الحكم الذى نطق به نفذ فى الحال أمام أعينهم ".[٢]

نستخلص من نص المخطوط السابق حرص البطريرك بنيامين على نشر العدل بين رعيته ، ومناصرة الضعيف فى مواجهة جبروت القوى ، وإحقاق الحق ليحل مكان الظلم فى عصر تقلبت فيه الأمور والأحوال رأسا على عقب بسبب تردى أحوال مصر الداخلية من دينية ، واقتصادية واجتماعية وأمنية ، تلك الأحوال التى كانت تسير من سيئ إلى أسوأ. هذا بينما كانت الأخطار الخارجية تتهدد البلاد.

وهكذا كانت مصر تمر آنذاك بأسوأ فتراتها التاريخية وأكثرها خطورة ، إذ شهدت تلك الفترة اندلاع العديد من الثورات المفاجئة والتى كانت بمثابة كوارث حلت بمصر. وزاد الطين بلة، اتساع هوة الانشقاق المذهبى بين المصريين وسادتهم البيزنطيين. وظهر بطريرك الإسكندرية آنذاك فى المحيط الدينى والميدان السياسى ، وغدا الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يصمد ضد سلطان الإمبراطور البيزنطى ومن يمثلونه. فالانشقاق القبطى هو مذهبى من حيث الحجة فقط. فالبطريرك " ديوسقوروس " (٤٤٤ـ٤٥٤م) DIOSCORE ، بطل الأرثوذكسية وتلميذ كيرلس عمود الإيمان ، والملقب بـ " ثانى الفراعنة "[3] والذى لا يذكر اسمه إلا مقرونا

(1) AMÉLINEAU, P. 377.
(2) AMÉLINEAU, P. 378.
(3) ROUILLARD, G., L'ADMINISTRATION CIVILE DE L'EGYPTE BYZANTINE, PARIS, 1928, P. 230

بمجمع خلقيدونية (أكتوبر ٤٥١م) ، كان يصرح دائما " **إن البلاد لى أكثر مما هى للأباطرة ، وإنى أطالب بالسيادة على مصر** ". ولم تفتر عزيمته فى انتظار الفرصة طويلا ليخرج بهذا التصريح من حيز الكلام إلى حيز العمل ، وسار من تلاه من بطاركة ـ ومن بينهم بنيامين ـ على خطاه[1]. وكان المصريون يطيعون ويؤمنون بأن طاعة بطاركتهم من طاعة الله. أما الإمبراطور ، فمهما يكن أمر طاعته القسرية ، فهى طاعة أرضية.

على أية حال ، حظى بنيامين بحب الجميع ، فكانوا يتلقونه فى كل مكان أفواجاً محاولين أن ينالوا منه البركات. هذا بينما حرص طوال بطريركيته على تطهير الكنيسة من الفاسدين ، مجازيا كل مسئ على تصرفاته بدافع الغيرة على بيعته والشفقة على شعبه. وفى مواجهة الحوادث السياسية والدينية الجارفة التى كان بإمكانها أن تعصف بكيان الكنيسة المصرية ، عمل رئيسها الدينى على تجديد وحدتها ، محاولا بذلك أن يعيد إليها إطمئنانها واستقرارها.

ولقد قضى البابا بنيامين مدة خمس سنين فى ظل حكم الفرس فى الإسكندرية. فقد احتل الفرس مصر سنة ٦١٩م ، وسهل لهم ذلك ما بلغته من فوضى واضطراب ، وما عانته من استبداد البيزنطيين وحرمان المصريين من ممارسة حقوقهم المدنية واختيار مذهبهم الدينى. رغم أن البطاركة الأقباط المونوفيزيين قد استراحوا من فرض بطاركة ملكانيين من قبل الإمبراطورية البيزنطية لا هم لهم إلا اضطهاد أتباع الكنيسة المصرية ، إلا أن الفرس خربوا البلاد طولا وعرضا ، ونهبوها وحطموا الكنائس والأديرة ، ولم يتورعوا عن إقامة المذابح للمصريين وقد أورد تفاصيل ذلك السنكسارات القبطية القريبة من الأحداث.[2]

---

(1) ROUILLARD, PP. 230-231; MASPERO, PP. 62-63.

(2) " السنكسار " SYNAXARE أو " السنكسارى " جمعها " السنكسارات " وهى كلمة من أصل يونانى وتعنى " جامع " أو " مجموعة ". ويعد " السنكسار القبطى " أهم المصادر التاريخية القبطية ، ويحوى السنكسار سير القديسين والشهداء موزعة على أيام السنة القبطية ، إضافة الى بعض أقوال آباء الكنيسة. وأشتهر يوليوس الأقفهيصى ـ وهو من أقفهص ، مركز الفشن محافظة المنيا ـ بصيته الواسع ، بكتابته الكثير من سير الشهداء وكان معاصراً لدقلديانوس (٢٨٤ـ٣٠٥م) وقسطنطين الكبير (ت ٣٣٧م). وقد أكمل " السنكسار القبطى " الذى وضعه يوليوس ، بطرس الملقب بالجميل أسقف مليج ، وهو أنبا بطرس ساويرس الجميل الذى عاش فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى وأوائل القرن الثالث عشر. وبعد ذلك ، قام ميخائيل أسقف أتريب ومليج بإصدار

ولقد عاصر البابا بنيامين عملية رحيل الفرس عن مصر سنة ٦٢٩م ، شاهدهم يبرحـون الديار المصرية ويغادرون عاصمتها الإسكندرية من بابها الشرقى بعدما تغلب عليهم الإمبراطور البيزنطى هرقل. ثم عاد إلى بلادهم الأسرى المصريون الذين وقعوا فى أيدى الفرس.(١) وكـان المسيحيون على اختلاف مذاهبهم من أقباط وملكانيين يرقبون حروب هرقل ضد الفرس ، بقلوب خاشعة واجفة. فلما انهزم الفرس ، وتم استعادة القدس وعاد الصليب المقدس ، أعلن المسيحيون على اختلاف نحلهم ، الفرح والسرور بما جرى من النصر وأظهروا أيضا سرورهم بمـا حـل

نسخة أخرى من السنكسار من تأليفه ، وهى مؤرخة فى النسخة الأثيوبية (١٢٤٦ــ١٢٤٧م) ، وتشـير الـى إشتراك آخرين معه فى التأليف ، خاصة يوحنا أسقف البرلس. للتفاصيل أنظر:

CHENEAU D'ORLEANS, P., LES SAINTS D'EGYPTE, JERUSALEM, P, 1923, t. II P. 268, THE COPTIC ENCYCLOPEDIA, ED. ATIYA. A. S., 8 VOLS, NEW YORK, 1991, SEE VOL. II. P. 431.VOL V, P. 1626.

نشر هذا المصدر بعنوان " كتاب السنسكار " فى ثلاثة أجزاء ــ القاهرة ١٩٧٨م وقد اعتمدنا عليه فـى إعـداد البحث. وقد سبق أن ذكرنا فى حاشية رقم ١ فى مستهل البحـث أن رينيـه باسـيه RENÉ BESSET نشـر مصدراً بعنوان " السنسكار القبطى اليعقوبى " ، أعتمد فى إعداده على مخطوطين عربيين نقلهما الى الفرنسية بعنوان:

LE SYNAXARE ARABE-JACOBITE, TEXTE ARABE, PUBLIÉ, TRADUIT ET ANNOTÉ PAR RENÉ BESSET, IN PATROLOGIA ORIENTALIS, t. VI, PARIS, 1922.

وقد نشر هذا المصدر بالعربية فى ثلاثة أجزاء الأنبا صموئيل بعنوان " السنكسار القبطـى اليعقـوبى " لرينيـه باسيه ــ القاهرة ١٩٩٩م ، اعتمدنا عليه فى إعداد بحثنا. كذلك اعتمدنا على مرجع من إعـداد إيـريس حبيـب المصرى فى ثلاثة أجزاء بعنوان " السنكسار الجديد " ــ القاهرة ١٩٨٧م.

(1) عن تفاصيل الغزو الفارسى لمصر (وليس الفتح الفارسى لمصر كما فى بعض المراجع ، فالفتوحـات قاصـرة على الفتوحات الإسلامية دون سواها) أنظر: ساويرس: جــ١ ، ص ٨٥ ، الأنبا يوساب: ص ٤٩ ، السنكسـار القبطى اليعقوبى ، جــ٢ ، ص ١٤٣. أنظر أيضاً: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، ص ١٧٣. وكذلك:

MUNIER, H., PRÉCIS DE L'HISTOIRE D'EGYPTE, t. II, P. I, P. 67; AMELINEAU, E., ETUDE SUR LE CHRISTIANISME EN EGYPTE AU=SEPTIEME SIÉCLE, PARIS, 1887, PP. 39-40; MASPERO, J., HISTOIRE DES PATRIARCHES D'ALEXANDRIE, PARIS, 1923, P. 328; FLICHE, A., & MARTIN, V., HISTOIRE DE L' EGLISE, PARIS, 1937-1944, t. V, P. 83; BRÉHIER, L., VIE ET MORT DE BYZANCE, PARIS, 1969, P. 54; OSTROGORSKY, G., HISTOIRE DE L' ETAT BYZANTIN, TRAD. J. GOUILLARD, PARIS, 1977, PP. 130-131, VASILIEV, A. A., HISTOIRE DE L' EMPIRE BYZANTIN, TRAD. P. BRODIN & A. BOURGUINA, PARIS, 1932, t. I, P. 259. TREADGOLD, W., A HISTORY OF THE BYZANTINE STATE AND SOCIETY, CALIFORNIA, 1997, PP. 291-293.

باليهود من نقمة واشتركوا جميعا فى التوبة تكفيرا عن هذا الذنب(١). وكانت هذه لحظة ذهبية ، لو اغتنموها لأدت إلى وفاق واتحاد دائم. وفطن هرقل إلى هذا ، غير أنه لم يدرك أن مذهبه الذى حاول به التوفيق ، قد يعارضه أهل مصر ، فإذا أصروا على رفضه ، فلن يسع هرقل إلا أن يفرض مذهبه عليهم فرضاً.

وبالفعل ، فقد كرس الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠ـ٦٤١م) كل طاقاته لإلزام الكنيسة لقبطية بقبول قرارات مجمع خلقيدونية(٢) الذى نادى بطبيعتين للسيد المسيح: إلهية وإنسانية ، بينما تمسك مسيحيو مصر والسريان والأرمن بالطبيعة الواحدة التى تضم وحدة الطبيعتين دون انفصال ولا امتزاج ولا اختلاط بينهما.

إزاء ذلك الفشل ، كلف هرقل سرجيوس SERGUIS بطريرك القسطنطينية وكيرس CYRUS أسقف فاسيس PHASAS بأرمينية الكبرى ــ الواقعة فى لازيك LAZIQUE على البحر الأسود فى الشرق(٣) ــ وبعض أساقفة الإمبراطورية البيزنطية بأن يضعوا سنة ٦٣٨م منشورا

---

(1) ساويرس: جـ١ ، ص ٨٣ ، كتاب السنكسار: جـ١، ص ٢٤٨ـ٢٤٩ ، الأنبا يوساب: ص ٤٨. أنظر أيضاً:
GUETTÉE,V., HISTOIRE DE L'EGLISE, PARIS, 1806, t. II, PP. 419-420.

(2) فى سنة ٤٥١م ، انعقد المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية ، وأكد فيه رجال الأكليروس المجتمعون أنم للمسيح طبيعتين: بشرية وإلهية. وبهذا أدينت تعاليم الإسكندرية المونوفيزية (مذهب الطبيعة الواحدة) على أنها غير أرثوذكسية. وترتب على قرارات مجمع خلقيدونية نتائج خطيرة ، إذ نشب الخلاف على الزعامة والصدارة بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما من جهة ، وبين كنيسة القسطنطينية وكنائس الإسكندرية وإنطاكية والقدس من جهة أخرى. فلقد عارضت الكنائس الشرقية فى مصر وبلاد الشام وفلسطين قرارات مجمع خلقيدونية ، مما جعل الصراع المذهبى بين أتباع الطبيعة الواحدة ــ السائد فى المقاطعات الشرقية ، واتباع الطبيعتين ــ السائد فى القسطنطينية ، النقطة التى تركزت حولها الخلافات الكنيسة والسياسية فى الإمبراطورية البيزنطية حتى مطلع القرن الثامن الميلادى. وكان هذا الخلاف المذهبى ، وسيلة للتعبير عن الميول الوطنين لسكان مصر والشام وفلسطين ، وعن رغبتهم فى التحرر من السيطرة البيزنطية ، بل والانفصال عن جسد الإمبراطورية البيزنطيين ، مما سهل على الفاتحين المسلمين فتح هذه البلدان. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: أرمينية بين البيزنطية والخلفاء الراشدين ، ص ٨٦ ــ ٨٧ ، حاشية رقم ٩٥.

(3) MASPERO, J. HISTOIRE DES PATRIARCHES D' ALEXANDRIE DEPUIS LA MORT DE L'EMPEREUR ANASTASE JUSQU'A LA RECONCILIATION DES ÉGLISES JACOBITES (518-616), PARIS, 1923, P. 339, M. 2.

يسمونه " الإكتاز " ECTHESIS أى " مشروع الاتحـاد "(١) ، لا يـذكرون فيـه اسـم المجمـع الخلقيدونى الذى يبغضه المصريون ، بل يقررون فيه أن للمسيح " مشيئة واحدة ". كـان هـدف هرقل من ذلك ، توحيد المذاهب فى جميع أصقاع الإمبراطورية البيزنطية ، وفى مصـر علـى وجه الخصوص. وقد أعلن بدعته الجديدة دون استشارة البطريرك بنيامين أو أخذ رأيـه ، ولـم يقف على رأى المصريين إذ لم يدرك أن المذهب الذى حاول جمع القلـوب حولـه ، يرفضـه المصريون ، ولم يعرف أنه يرتكب خطأ كبيرا إذا حاول أن يرغمهم عليه ويجبرهم على قبوله ؛ مما أدى إلى عدم نجاح المذهب الجديد فى مصر(٢). فما كان من هرقل أن عين كيرس CYRUS بطريرك ملكانيا وواليا على مصر فى آن واحد ، فجمع بين يديه السلطتين الدينيـة والمدنيـة ، وأصبح ذا سلطان مطلق على البلاد المصرية كما وكله بجبايـة الخـراج ، والنهـوض بمهمـة " مشروع الاتحاد ". ويعد هذا الإجراء من أشد الأخطاء خطورة ، إذ شهر كيرس ـ الذى عرف فيما بعد باسم المقوقس ـ شهر حربا عوانا على المصريين فى عقيدتهم ومذهبهم(٣). إزاء ذلك ، أخذ البابا بنيامين فى تدبير أمور الكنيسة وجمع رجال الإكليروس ، وحضهم على الثبـات علـى عقيدتهم ، وكتب إلى سائر الأساقفة يأمرهم بالاختفاء فى الجبال والصحارى إلـى أن يرفـع الله عنهم هذه المحنة. وكان اختفاء بنيامين فى نفس الوقت الذى جاء فيه كيرس إلـى الإسـكندرية ، كذلك تشرد الإكليروس المصرى فزعين.

---

(1) ROUILLARD, PP. 235-236; MASPERO, P. 371; ENCYCLOPÉDIE DES SCIENCES RELIGIEUSE, NEW YORK, 1960, t. IX, PP. 331-333; DVORNIK, F., HISTOIRE DES CONCILES, PARIS, 1962, PP. 50-52.

أنظر أيضاً: رأفت عبد الحميد وطارق منصور: مصر فى العصر البيزنطى ٢٨٤ – ٦٤١ م ـ القـاهرة ٢٠٠٣ ـ ص ١٧٨.

(2) MASPERO, P. 325; ROUILLARD, PP. 235-236; MUNIER, PP. 68, 92,

(3) ساويرس: جـ١ ، ص ٨٥ ، الأنبا يوساب: ص ٤٩. أنظر أيضاً رأفت عبد الحميـد وطـارق منصـور: ص ١٧٨. وكذلك:

ENCYCLOPEDIE DES SCIENCES RELIGIEUSES, t. IX, PP. 331-333; MICHEL LE SYRIEN,CHRONIQUE, TRAD, BROSSET, PARIS, 1899, t. II, PP. 402-403; ROUILLARD, P. 235; MASPERO, P. 339.

وبعدما أعد عدته ، سار بنيامين من الإسكندرية تحت جنح الظلام لا يصحبه إلا رفيقان ، وخرج من المدينة من الباب الغربى قاصدا مريوط ومدينة القديس مينا العجـايبى[١]. وبعـد أن صلى فى كنيستها الكبرى ، واستراح قليلا من عناء السفر ، مضى إلى جبـل برنـوج[٢] حتـى أصبح قريبا من " برية شيهيت "[٣] بوادى النطرون[٤] فوجد أديرتها خالية من الرهبان ، ثم سـار

---

(1) اكتظت صحراء مريوط بالعديد من الأديرة الواسعة ، على رأسها دير مارمينا العجايبى ، حيث كانت تقوم مدينة كاملة حول مقبرته وديره وكنيسته التى بناها الإمبراطور أركاديوس (٣٩٥ـ٤٠٨م) ARCADIUS فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، وذلك بمناسبة شفاء ابنته عند زيارتها لمكان وجود جسد القديس مينـا. للتفاصـيل عـن مريوط وسيرة مارمينا وديره وكنيسته أنظر: رءوف حبيب: الرهبنة والديرية فى مصر ــ القـاهرة ١٩٩٩م ــ ص ١٢٠ ــ ١٢٤ ، مينا إسكندر: الشهيد المصرى مارمينا العجايبى ــ الإسـكندرية ١٩٦٣م ــ ص ٢١ ومـا يليها ، ٢٠٩ وما يليها ، ٢٥٢ وما يليها ، باهور لبيب: الآثار القبطية ــ مقال فى رسالة مارمينـا الخامسـة ــ الإسكندرية ١٩٥٤م ــ ص ١٠٧. وكذلك:

GLANVILLE, S. R. K., THE LAGACY OF EGYPT, OXFORD, 1957, P 323-327; QUATREMÈRE, E., MÉMOIRES GÉOGRAPHIQUES ET HISTORIQUES SUR L'EGYPTE, PARIS, 1811, t. I, P. 488.

(2) تطوق منطقة وادى النطرون من الشمال سلسلة تلال تعرف بصحراء أو " جبل برنوج " أو " جبـل نيتريـا " ، وتقع الآن الى الغرب من منتصف الطريق الصحراوى بين مصر والإسكندرية تقريبا ، وتعتبر أقـدم المنـاطق التى هرع إليها المتوحدون منذ فجر العصور المسيحية فى القرنين الثانى والثالث للمـيلاد. كمـا أطلـق علـى الأماكن التى التجأت بأطرافه الرهبان وطوائف النساك أسماء أخرى مثل " برية شيهيت " بمعنى ميزان القلـوب أو " برية الإسقيط " أو " وادى هبيب " ومنطقة سيليا أو خليا أو صحراء التلالى. وكانت تلك المنطقـة المتسـعة الأرجاء منقسمة الى ثلاثة مراكز هامة للرهبنة. إحداها باسم " تلال نيتريا " NITRIA ، والثانية تعـرف باسـم القلالى CELLIA أو سيليا ، والثالثة وهى " برية الإسقيط " SCETIS وتبدأ كذلك من ناحيـة الشـمال الـى الجنوب مع انحراف بسيط ناحية الشرق. أنظر: رءوف حبيب: الرهبنة والديرية فى مصر ــ القاهرة ١٩٩٩م ، ص ٥٧ــ٥٨. وكذلك:

AMÉLINEAU, E., GÉOGRAPHIE DE L' EGYPTE À L' ÉPOQUE COPTE, PARIS, 1893, PP. 319-321.

(3) عن " برية شيهيت " أنظر الحاشية السابقة.

(4) فى سنة ٥٥١م ، اشتد الاضطهاد المذهبى البيزنطى على أقباط مصر ، فترك البطريرك الإسكندرية وأقام بـين رهبـان وادى النطرون ، فأصبح الوادى آنذاك مركزاً للكنيسة القبطية تدار منه شئونها. وهناك كان يتم تدشين الأسـاقفة. كـذلك تبلورت فى وادى النطرون طقوس الكنيسة القبطية وأخذت شكلها النهائى. وكان الاتصـال سـهلا بـين أديـرة وادى

إلى الأهرام ، ثم تركها إلى صعيد مصر حتى بلغ مدينة قوص[1] ، واختفى فـي ديـر صـغير بالصحراء بالقرب من هذه المدينة. وبقى مختفيا فيه إلى مجئ المسلمين وفتح العرب لمصر[2].

لقد تقدم القول بأن الإمبراطور هرقل فكر بعدما استتب له حكم مصرـ فى أمر وضع حد للاختلافات الكنسية وتوحيد المذاهب المسيحية فى الشرق ، ووقع اختياره على كيـرس CYRUS للنهوض بهذه المهمة.

تحقيقا لغاية إمبراطوره ، تظاهر كيرس فى أول الأمر أنه جاء ليلقى سلاما فى الكنيسة ، وجعل يبين للناس المذهب الجديد مذهب المونوتيلية[3] MONOTHELISME ـ أى مذهب المشيئة

النطرون ومدينة الإسكندرية لوجود طريق يربطها بالعاصمة. وكان الرهبان يذهبون إليها لبيـع السـلال التـى كـانوا يصنعونها بأيديهم. أنظر: GLANVILLE, P. 327.

(1) تقع " مدينة قوص " على الساحل الشرقى من النيل ، على مسافة تقارب ٦٤٥ كم جنوب القاهرة ، وهـى مـن المراكز الهامة فى محافظة قنا. وقد ذكر " أبو المكارم " فى تاريخه عن الكنائس والأديرة فى القرن ١٢ بالوجـه القبلى أن مدينة قوص " وتفسيرها الكفن ، كان فيها من يكفن الملوك ، وعليها سوردائر. وهذه المدينة ـ حسـب قوله ـ بناها قوس بن قفط ليسافر عنها فى الغرب الى الواحات وفى الشرق الى معادن البتر والزمـرد والـى الحجاز (أنظر: أبو المكارم ـ جـ٢ ، ص ١٠٧) ونستخلص من رواية أبى المكارم أن أهلها اشتهروا بمهارتهم الفائقة فى دفن الموتى وتكفينهم. وقد اختلفت المصادر الإسلامية فى سبب تسميتها. فمن قائل إنها سـميت باسـم رجل يقال له قوص بن فقط بن أخميم بن سيقاف بن أشمف بن مصر (أنظر: الإدفوى: الطالع السعيد ـ الجـامع لأسماء نجباء الصعيد ـ نشر سعد محمد حسن ـ القاهرة ١٩٦٦ ـ ص ١٣ -١٤): ومن قائل إنها سميت باسم قوص بن سيقاف بن أشمن بن مصر (أنظر: ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار ـ بولاق ١٣٠٩ هـ ـ جـ٥ ، ص ٢٩). والقول الراجح هو ما ذكره أبو المكارم. للتفاصيل أنظر:
QUATREMÈRE, E., MÉMOIRES GÉOGRAPHIQUES ET HISTORIQUES SUR L'EGYPTE, PARIS, 1811, t. I, PP. 192, 216.

(2) أبو المكارم: كنائس وأديرة الوجه القبلى، جـ ٢ ، ص ١٠٨، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى ـ ترجمة ودراسـة عمر صابر عبد الجليل ـ القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ٢٢٠ ، حاشـية ٢ ، سـاويرس: جــ١، ص ٨٥ـ٨٦ ، السنكسار القبطى اليعقوبى: جـ ٢ ، ص ١٤٤ـ١٤٥ ، كتاب السنكسار: جـ ١ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠، الأنبـا يوساب ، ص ٤٩. أنظر أيضاً: القمص تادرس يعقوب ملطى: قاموس= آباء الكنيسة وقديسـيها ، جـ٢ ، ص ١٧٤ ، إيريس حبيب المصرى: السنكسار الجديد ، جـ١ ، ص ٣٥٣ـ٣٥٤ ، يعقوب نخلة روفيلة: تاريخ الأمة القبطية ، ص ٣٥ . وكذلك: ROUILLARD, PP. 236-237.

(3) للتفاصيل عن " المونوتيلية " MONOTHÉLISME أنظر:

الواحدة ـ الذى أراد به هرقل إزالة ما أثاره مجمع خلقيدونية من الشقاق والنزاع المستمر بين الشعب المصرى(١) ، كما سبق أن ذكرنا.

ولقد تعزز الميل عند هرقل إلى اتحاد المونوفيزيين مع الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة بطريقة ترضى الجميع. وعاونه فى هذه الفكرة سرجيوس SERGIUS بطريرك القسطنطينية (٦١٠ـ٦٣٨م) ، وهو شامى الأصل ، ومن أبوين يعقوبيين بحسب رواية المؤرخ البيزنطى ثيوفانس(٢) THEOPHANES.

والأساس العقائدى الأصلى لهذه الحركة التوحيدية الناشئة هى ما استعمل عند المونوفيزيين الإسكندريين من قولهم " فعل واحد أو إرادة واحدة " أو بالأحرى مشيئة واحدة للمسيح ـ أى أن هذا المذهب يجمع بين ما يعتقده الروم الملكانيين وما يتمسك به المصريون ، لأنه يتضمن مشيئة واحدة للسيد المسيح مع وجود طبيعتى " اللاهوت والناسوت فيه ". غير أن الغزو الفارسى لمصر قطع كل مجال للبحث أو التعليم عن المشيئة الواحدة فى المسيح. أما الفتح الإسلامى ، فقد أوقف إلى حين حركة المونوتيلية أيضا(٣).

ولقد رسمت لنا " سيرة الأنبا شنودة " رئيس المتوحدين ، التى قام بنشرها العالم الفرنسى " أميلينو " M. E. AMELINEAU صورة واضحة عن حوادث الاضطهاد والانقلاب العظيم الذى شهدته مصر آنذاك. جاء فيها:

HÉFÈLÉ LECLERCQ, HISTOIRE DES CONCILES, LIVRE XVI, CHAP. I, t. III, PP. 317-336, DVORNIK, PP. 50-53; GRUMEL, V., RECHERCHES SUR L'HISTOIRE DU MONOTHÉLISME, ECHOS D'ORIENT XXVII – XXIX, 1928, 1930.

(1) MASPERO, P. 339.

(2) Theophanes, Chronographia, in c.s.h.b., P. 507. والجدير بالذكر أن سرجيوس وصف عمل كيرس الإسكندرى بأنه " عمل تدبيرى " من أجل توحيد المونوفيزيين مع الكنيسة الملكانية. للتفاصيل أنظر:

Mansi, J. D., Sacrorum conciliorum novaet amplissima collectio, Austria, 1860, t. X1, Col. 532-533.

(3) Mansi, T. X1, Col. 532. CF. Héfelé-Leclercq, T. III, P .426, n. 12.

" ... بعد قليل ، ينصرف الفرس عن مصر ، ثم يقوم الدجال[١] ANTECHRIST ويدخل إلى ملك الروم ويتولى من قبله رئاسة الأمراء والأساقفة ، ويدخل إلى مصر ويعمل أعمالا كثيرة ويستولى على مصر وأعمالها ، ويبنى الخنادق والحصون ، ويأمر أن تبنى أسوار المدن التى فى البرارى والقفار ، ويخرب الشرق والغرب ، ثم أنه يطارد الراعى رئيس الأساقفة بالإسكندرية المتولى على المسيحيين القاطنين بكورة مصر ، ويطردونه فيهرب إلى ناحية التيمن TIMAN (تيمان) إلى أن يصل إلى ديرك وهو حزين كئيب ؛ فإذا أبلغ إلى ها هنا ، فإنى أرده وأجلسه على كرسيه دفعة أخرى. وبعد ذلك ، يقوم بنو إسماعيل وبنو عيسو ويطردون المسيحيين والبقية منهم يهمون أن يسودوا على الأرض كلها ويملكوها ويبنوا الهيكل الذى بأورشليم ؛ فإذا كان هذا ، أعلم أنه قد قرب آخر الزمان وقد دنا "[٢]

على أية حال ، لما رأى كيرس إخفاقه فى سعيه المتواصل إلى نشر مذهبه الجديد ، صار يعرض على المصريين أحد أمريين: إما قبول مذهب خلقيدونية ، وإما الجلد والقتل. وأعقب ذلك شن غارة الاضطهاد التى استمرت مدة عشر سنوات ، عانى خلالها المصريون أبشع ألوان العذاب حتى جعلت مرارة حكم الفرس الوثنيين سهلة المذاق بجانبها ، إذ كانت حرية العبادة مكفولة لهم أثناء إقامتهم بمصر ، بينما سار الحكم البيزنطى على نقيض ذلك ، فلم يبق على حرية معتقدات المصريين وزاد على ذلك قسوة الاضطهاد[٣] .

ولقد شمل الاضطهاد جميع أنحاء البلاد وفى جملتها الأديرة الناشئة والأصقاع البعيدة. وكان حظ من يأبى من السكان الرهبان والعلمانيين أن يتخلى عن مذهبه المونوفيزى أو يقاوم أمر كيرس ،

---

(1) وهو الاسم المعتاد للمسيح الدجال

(2) Amélineau, E., Vie de Shenoudi in Mission Archéologique Francaise, Paris 1889, t. IV, I, PP. 340-341; Fragments Coptes, P. 405

(3) ساويرس: جـ١ ، ص ٨٥ـ٨٦. أنظر أيضاً: Rouillard, p. 236

الجلد والتعذيب أو السجن أو الموت. فتشرد الرهبان والكهنة ، واستولى الأساقفة الملكانيين على الكنائس والأبرشيات المصرية[١] .

ولقد نشر " أميلينو " M. E. AMELINEAU ـ العالم الفرنسى المتخصص فى تاريخ مصر آنذاك ـ قطع قبطية صعيدية تثبت صحة خبر اضطهاد الأديرة والرهبان بمعرفة كيرس[٢] CYRUS ، ويبتدئ الخبر فيها عندما وصل هذا الأخير إلى جبل القلمون[٣] لنشر مذهبه ، واضطهاده لمن لم يقبل عليه من الرهبان حيث جاء فيها ما يلى:

" ... لقد بارحوا ، فقال رئيس الدير L'ECONOME " لا أعرف لأى سبب بارحوا ". حينئذ أمر بضرب رئيس الدير[٤] حتى يخبره بكل ما حصل. فأجابه الرئيس بقوله: " لا تضربنى وأنا أخبرك الحقيقة. إن الرجل صموئيل الناسك[٥] SAMUEL L'ASCETE عمل للرهبان موعظة طويلة لامك فيها ودعاك مجدفا ويهوديا خلقيدونيا وكافرا غير

---

(1) ساويرس: جـ١ ، ص ٨٥-٨٦؛ الأنبا يوساب: ص ٤٩؛ السنكسار القبطى اليعقوبى: جـ٢، ص ١٤٤ـ١٤٥؛ كتاب السنكسار: جـ١، ص ٢٤٩ـ٢٥٠، أنظر أيضاً:

Munier, PP. 68, 92; Rouillard, P. 236; Amélineau, E., Vie Du Patriarche ISAAC- Histoire du patriarche ISAAC, Texte et Trad., Paris, 1890, P. 12.

(2) Amélineau, 1er Fragment, pp. 363-368

(3) يقع " جبل القلمون " فى الجزء الجنوبى من الفيوم ، ومعنى الكلمة " الغاب " ومنها اشتقت الكلمة العربية " قلم ". و" دير القلمون " ـ ويسمى أيضاً دير الأنبا صموئيل القلمونى " ـ يقع فى منطقة وادى الريان. عند سفح جبل القلمون فى مدخل الفيوم. وقد شيده= صموئيل القلمونى حوالى القرن السابع الميلادى ، وذكر أبو المكارم أن لهذا الدير أطيان كثيرة بالصعيد وشبرا ، وكذا ملاحات وأشجار نخيل. أنظر: أبو المكارم: جـ ٢ ، ص ٩٢ـ٩٣.

(4) Amélineau, 1er Fragmen T, P. 363. وعن " دير القلمون " أنظر الحاشية السابقة.

(5) ولد " الأنبا صموائيل المعترف (القلمونى) " فى " دكلوبا " (فوة حاليا). وكان أبوه كاهنا وأمه امرأة تقية. وكان صموئيل وحيدهما ، ورسم شماساً وهو فى الثانية عشرة من عمره وفى شبابه دخل سلك الرهبنة ، وأنفق أمواله فى بناء كنيسة فخمة ثم أصبح " أرشيدياكون " أى رئيس الشمامسة وسلمه والده مقاليد الكنيسة. وبعد ذلك قصد إلى الصحراء وبدأ حياته الرهبانية فى دير الأنبا مكارى، وتتلمذ لناسك شيخ اسمه أغاثون للتفاصيل أنظر: كتاب السنكسار، جـ١، ص ١٨١ـ١٨٣؛ السنكسار القبطى اليعقوبى، جـ٢، ص ٢٣ـ٢٥. وكذلك:

Amélineau, Fragments Coptes, PP. 397-398.

مستحق أن تقدس بصفتك بطريرك ، وغير مستحق لشركتك بأى نوع ، ولهـذا السـبب أصغى الرهبان لكلامه وذهبوا ". فلما سمع الكافر هذا الكلام ، غضب غضـبا شـديدا ، وصار يعض شفتيه من شدة غضبه ، ثم ابتدأ يلعن رئيس الدير والدير والرهبان. وعقب ذلك، رجع من سكة أخرى[١] ، ولم يحضر للجبل لهذا اليوم ؛ وبعد هذه الحادثة ، رجـع الاخوة بسلام إلى الدير.

أما من جهة المقوقس KAUKHIOS البطريرك الكاذب PSEUDO-ARCHEVEQUE فإنه صار حاقدا لحين وصوله لمدينة الفيوم ، فقد أحضر خداما ورجالا عارفين البلـد ، لكى يأتوا له بالقديس أنبا صموئيل APA SAMUEL مغلول اليدين وراء ظهره ، وفـى عنقه طوق حديد ، ويدفعوه أمامهم مثل لص ، فوصلوا إلى الدير TOPOS[٢] وأخذوه. أما هو ، فكان يمشى متهللا بالرب قائلا: " ولعل الله سبحانه وتعالى يجعل دمى يسـفك اليوم من أجل اسم المسيح ". ولهذا ابتدأ بشتم[٣] المقوقس بحرية تامة قـائلا: " بـدون شك أنه سيفعل ما وعد به منذ قليل ". فلما أحضره العسكر أمام المقوقس ، ورأى الكافر رجل الله ، امتلأ حنقا وأمر العسكر أن يضربوه حتى يسيل دمه مثل الماء.

ثم بعد ذلك قال له " أنت يا صموئيل الناسك الكافر ، قل لى من رسمك إيغومانسـا[٤] HEGOUMENE على هذا الدير ، ومن أمرك أن تغرى الرهبان ليس فقط على لعنى بل أيضا ولعن إيمانى " فأجابه القديس أنبا صموئيل قائلا: " إنـه مـن الجيـد إطاعـة الله وقديسه البطريرك أنبا بنيامين APA BENJAMIN أولى من الإطاعة لـك ولتعليمـك[٥] الشيطانى يا ابن إبليس ويا أيها المسيخ الدجال ANTECHRIST". حينئذ أمر بضـرب القديس أنبا صموئيل على فمه قائلا:

---

(1) Amélineau, p. 364.

(2) الـ " توبوس " Topos يقصد به دير وبه كنسية. أنظر Amélineau, P. 365, n.1.

(3) Amélineau, p. 365.

(4) " الإيغومانس " Hégouméne أى رئيس الدير

(5) Amélineau, p. 366.

إن المجد الذى يعطيه لك الناس بصفة ناسك ينفخك ، لكن أنا الذى سـوف أعلمـك وأرشدك للتكلم بالباطل ، لأنك لم تكرمنى بصفة كونى بطريركا ، ولم ترعنى أيضـا أنـا وسلطانى بصفتى عاملا على خراج مصر " فأجابه القديس أنبـا صـموئيل قـائلا: " إن الشيطان MASTIMA[1] كان أيضا بوظيفة عامل ، وله سلطان على الملائكة ، لكـن تكبره وعدم أمانته إنما هما اللذان جعلاه غريبا عن مجد الله[2] وملائكته. وأنت أيضا أيهـا الخلقيدونى الغاش ، إيمانك نجس ، وأنت ملعون أكثر من الشيطان وجنوده! "

فلما سمع المقوقس ذلك ، امتلأ حقدا ضد القديس ، وأشار إلى العسكر أن يجلدوه إلى حد الموت. قصارى القول ، فإن الكافر حاول قتل القديس ، وكاد يتم له ذلك ، لولا أن قضاة مدينـة الفيوم خلصوه من بين يديه. ولما رأى صموئيل نجا من شره ، أمر بطرده من جبل النقلـون[3] NEKLONE[4] ".

هكذا يعد النص السابق دليلا قاطعا على الاضطهاد الذى عانى منه المصريون من جهة ، ومن جهة أخرى يؤكد النص أن المقوقس والى الخراج هو نفس كيـرس CYRUS البطريـرك الملكانى. وفى هذا ما يبرئ المصريين من نسبة هذا الطاغى إليهم.

---

(1) كلمة المقصود بها " عدو الله " أى الشطيان أنظر: Amélineau, P. 367, n.1.

(2) Amélineau, P. 367.

(3) Amélineau, P. 368.

(4) "جبل النقلون" يقع جنوب غرب مدينة الفيوم. أما دير النقلون ويقال له دير الخشبة ودير غبريال الملك فهو يقـع تحت مغارة فى الجبل الذى يقال له طارف الفيوم قرب عزبة قلمشاة. وهذه المغارة تعرف بمظلة يعقوب ؛ ويقال إن يعقوب عليه السلام ، لما قدم مصر كان يستظل بها. وجبل النقلون يطل على بلدين يقال لهما أطفـيح شـيلا وشلا. ويملأ الماء لهذا الدير من بحر المنهى ومن تحت دير سدمنت. ولهذا الدير عيد يجتمع فيه نصارى الفيوم وغيرهم ، وهو على السكة التى تنزل إلى الفيوم ، ولا يسلكها إلا القليل مـن المسـافرين. أنظـر: المقريـزى: الخطط ــ بولاق ١٢٧٠ هــ ــ جــ١، ص ٣١٣ــ٣١٤؛ أبو المكارم: ما كتبـه الأجانـب والمؤرخـون عـن الكنائس والأديرة – إعداد الأنبا صموئيل ــ جــ٤ ، ص ٣١. أبو المكارم: الكنائس والأديـرة فـى القـرن ١٢ بالوجه القبلى ــ إعداد الأنبا صموئيل ــ ص ٩١.

وكان سعى كيرس الخلقيدونى متواصلا بكل همة للبحث عن البابا بنيامين ، ولذلك كان البطريرك يتنقل من دير لآخر من الأديرة الحصينة. وبعد ما اختفى بنيامين فى دير الأنبا شنودة المعروف بالدير الأبيض بسوهاج(١) ، التجأ إلى جبال صحراء قوص ، حيث عاش فى مغاورها البعيدة عن المدن وطرق المواصلات فى دير صغير فى البرية حتى انقضت عشر سنوات فلم يتمكن كيرس من الوصول إليه(٢). فما كان منه أن قبض على أخيه مينا. ثم أمر جنده بتعذيبه وإذاقته أشد ألوان العذاب. فأوقدوا المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ يحترق " حتى سال دهنه من جانبه إلى الأرض " على حد قول ساويرس بن المقفع. ومع ذلك لم يتزعزع عن إيمانه ، ولم يعترف بمخبأ أخيه بنيامين. وتحمل اللهب فى صمت تام دون أن يلفظ بكلمة واحدة ، فاستثار صمته غضب كيرس أكثر فأكثر ، فأمر بخلع أسنانه وأن يضعوه على الفور داخل زكيبة مملوءة رملا ويلقوا به فى البحر فمات غرقا.(٣) وهكذا كان مينا أول شهيد نكل به كيرس.

وثقلت وطأة حكم كيرس ، فاضطر بعض الضعاف الذين لم يستطيعوا الهجرة والاختفاء من أمامه إلى الخضوع وقبول المذهب الجديد " المونوتيلية " مذهب عدوهم ، ومن بينهم كيرس أسقف نقيوس وبقطر أسقف الفيوم ، وعدد آخر يعد على الأصابع.

---

(1) يبعد " الدير الأبيض " عن مدينة سوهاج بحوالى ثمانية كيلومترات. وقد شيد أغلبه من الحجر الجيرى ، لذا سمى بالدير الأبيض ، ويقال أن الأنبا شنودة الأخمينى (٣٤٣ـ٤٥١م) وهو مؤسس المسيحية القبطية ، وأعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عصر من عصورهم الطويلة ، يقال إنه شيد الدير الأبيض حوالى القرن الرابع. للتفاصيل عن الدير والأنبا شنودة أنظر: رءوف حبيب: الرهبنة والديرية فى مصر، ص ١٧٥ـ١٩٧؛ مراد كامل ، القبط فى ركب الحضارة ، ص ١٨٩-١٩١ـ الفصل الثالث من رسالة مارمينا الخامسة عشر ـ القاهرة ١٩٩٥م.

(2) ساويرس: جـ١ ، ص ٨٥ـ٨٦ ، أبو المكارم: جـ ٢ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ كتاب السنكسار القبطى اليعقوبى: جـ٢ ، ص ١٤١ ؛ كتاب السنكسار: جـ ١ ، ص ٢٥٠ ؛ الأنبا يوساب: ص ٤٩. أنظر أيضاً: إيريس حبيب المصرى: السنكسار الجديد، جـ ١ ، ص ٣٥٣. وكذلك:
Duchesne, L., L'Eglise Au VI Siécle, Paris, 1925, PP. 413-414; Rouillard, P. 237

(3) ساويرس: جـ١ : ص ٨٦ ؛ السنكسار القبطى اليعقوبى: جـ٢ ، ص ١١٥ ؛ كتاب السنكسار: جـ ١ ، ص ٢٥٠ ؛ الأنبا يوساب: ص ٤٩. أنظر أيضاً: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها ، جـ٢ ، ص ١٧٥؛ السنكسار الجديد ، جـ١ ، ص ٣٥٣. وكذلك: Maspero, p. 371; Rouillard, pp. 236-237

أما الذين لم يستطيعوا الهرب ولم يقبلوا التغيير ، فلجأوا إلى التظاهر بغير ما يبطنونه[1]. وبقيت جالية كبيرة من المصريين المتمسكين بمذهبهم المونوفيزى تعيش فى الإسكندرية ، يـدير شئونها قس وحيد من أهل مريوط يدعى " أغاثون "[2] AGATHON. وكان هذا القـس يبـذل جهوداً شاقة فى سبيل إحياء الشعائر الدينية بين المصريين ، فكان فى أثناء شدة الاضطهاد يتزيا بزى العلمانيين فى مدينة الإسكندرية ويطوف فى الليل يثبت المونوفيزيين على إيمانهم المـذهبى ويقضى حوائجهم ، ويقيم شعائر العبادة لإخوانه المصريين ، وكان أثناء النهار يحمل قفـة فيهـا آلات النجارين ، ويتظاهر بأنه نجار حتى لا يعترضه المخالفون ، ويجد بذلك السبيل إلى دخـول دور المنوفيزيين ومنازلهم. وظل هكذا حتى الفتح الإسلامى لمصر. فكافأه المصريون على هـذه التضحيات الجسيمة والمخاطر الكبيرة بأن أولته ثقتها ، ورفعته إلى الكرسى البابوى بعـد وفـاة البابا بنيامين. وكان قد قربه البابا إلى مجلسه واتخذه ولداً وتلميذاً له ، وشمله برعايته ، وأقامـه مساعداً له فى إدارة شئون الكنيسة المصرية فى إبان شيخوخته.[3]

هكذا ، منذ مجمع خلقيدونية المنعقد فى سنة ٤٥١م إلى سنة ٦٤١م ، لم تذق مصر طعـم السلام الداخلى ، إذ كانت فى صراعٍ دائم مع الذين حكموها من ولاة بيزنطيين ، فكانوا يتخاذلون أحياناً وينتصرون أخرى. وكانت تكبد هؤلاء الحكام الخلقيدونيين ثمناً غالياً فى سبيل الحكم الذى يبسطونه عليها. فالمصريون قاسوا الآلام والأوجاع والتشريد و التقتيل فى سبيل ذلك.

والملاحظ أن زيادة الاضطهاد لم تفت فى عضد أكثرية المصـريين ، بـل إنهـا علـى العكس ، زادتهم تماسكاً بمذهبهم المونوفيزى ؛ غير أن شدة التعسف كانت سبباً قوياً فى القضـاء

---

(1) ساويرس: جـ١، ص ٨٦. أنظر أيضاً: Rouillard, p. 237; Duchesne, p. 413

(2) ولد " أغاثون " فى مريوط ، ودرس الكتاب المقدس وسير الآباء ، ثم ذهب إلى الإسكندرية ليتعلم فى مدرسـتها: وبعد تخرجه منها أصبح كاهناً. وبعد زوال السيادة البيزنطية على مصر ، اتخذه الباب بنيامين الأول سـكرتيرا خاصاً له ، ثم رشحه ليخلفه ، فأصبح البابا التاسع والثلاثين. وفى عهد بطريركيتـه ، انتهـز فرصـة سياسـية التسامح التى اتبعها عمرو بن العاص ، وأعاد بناء كنيسة مار مرقس بالإسكندرية. كما شيد فى مواجهة الكنيسـة بيتا فسيحا للغرباء والمحتاجين ، يبيتون فيه. للتفاصيل أنظر: كتـاب السنكسـار ، جـ١ ، ص ٨٠ــ٨٢ ؛ السنكسار القبطى اليعقوبى ، جـ ١ ، ص ٦٨ــ٦٩.

(3) ساويرس: جـ١، ص ٩١؛ كتاب السنكسار: جـ١، ص ٨١ وكذلك: Rouillard, p. 237

على كل أمل فى إعادة السلام بين البيزنطيين والمصريين ، بل جعلت هوة الخلاف أكثر اتساعاً ، واستمرت العداوة فى ازدياد ، وتأصلت الكراهية للسيادة البيزنطية ومذهبها الملكانى. ومع ذلك ، لم يلجأ المصريون إلى خيانة البلاد.

وهكذا أصر المصريون على الاحتفاظ بعقيدتهم الأرثوذكسية على المذهب المونوفيزى ، والتمسك باستقلالهم الدينى. فلم يرهبوا الاستشهاد وتحمل كافة ألوان العذاب ، ورضوا بأن يدفعوا الثمن فى أنفة واعتزاز. ولم يقابلوا هذا الاستبداد فى صمت وذلة ، ولكنهم تمردوا أكثر من مرة ، وأعلنوا للمستعمرين البيزنطيين سخطهم عليهم واستخفافهم بوسائلهم الجهنمية. فبدت مصر فى القرن السابع الميلادى فى صورة قاتمة موجعة: ففى ناحية منها وقف الطغاة المستبدون من عملاء القسطنطينية ، وفى الناحية الأخرى وقف المصرين صامدين رافعى الرؤوس. فكانت النتجية الحتمية لهذه الصورة القاتمة الموجة انتشار الفوضى والاضطراب.

ولقد زودنا المؤرخ الفرنسى المحدث هنرى مونييه Henri Munier بصورة حية لأحوال مصر آنذاك جاء فيها أن المصريين كانوا يعرفون أنهم الشعب الذى نال كهنته أكبر نصيب من الألم زوداً عن الإيمان ، بسبب تبعيته السياسية للقسطنطينية وتدخلها فى شئونه. فقد كان الشعب المصرى يرى أمامه كل يوم بطش الأباطرة بالبطاركة الذين كانوا كثيراً ما يفضلون النفى على امتيازات كرامتهم العظمى ، كذلك واجهوا قررات الحرمان الكنسية التى كانت تصدرها فى حقهم المجامع الدينية فى محاولة لفرض مذهبهم الدينى. وكانت الأحكام الغاشمة الصادرة عن القسطنطينية متكررة بلا انقطاع مستهدفة تنصيب العملاء وفق اختيارهم ليجلسوا على عرش القديس مرقس. وأدى ذلك بالتالى إلى الصدام والمذابح.(١)

خلاصة القول فإن الشعب المصرى ـــ بزعامة بطاركته – لم يطمع من الناحية الوطنية إلا بشبه استقلال أساسه حرية العقيدة وفق المذهب الذى يؤمن به ألا وهو المذهب المونوفيزى؛ إضافة إلى خفض الضرائب التى أثقلت كاهله – هكذا كان الحال طوال العصر البيزنطى ـــ وهى السياسة التى سار عليها عمرو بن العاص عندما دخل مصر فاتحاً.

---

(1) Munier, pp. 68, 92.

على أية حال ، فى وسط كل هذا القلق والتوتر ، وهذا الاستبداد الذى تقابله الثـورات ، ظهر الفاتحون المسلمون على الأبواب. والجدير بالتسـجيل أن الأسـقف الأرمنـى " سـبيوس Sébeos "[١] ، ذلك المؤرخ الوحيد المعاصر للفتوحات الإسلامية[٢] ، وشاهد عيان لفتح المسلمين لبلاده أرمينية[٣] ، ذكر فى مصدره أن المسلمين " كلفهـم الله عـز وجـلّ بمهمـة الفتوحـات الإسلامية.[٤] هذا بينما أورد جيفوند[٥] Ghévond ـ المؤرخ الأرمنى المعاصر لأحداث القـرن

(1) عن " سبيوس " Sébeos ومصدره " تاريخ هرقل " Histoire d'Heraclius أعددنا كتاباً بعنوان: فايز نجيـب إسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن فى ضـوء كتابـات المـورخ الأرمنـى المعاصـر سـبيوس (١١-٤٠هـ/٦٣٢ - ٦٤٠م) ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٩٣م. وقد نشر الدكتور طاهر مصطفى فى جريدة الحياة اللندنية ، يوم السبت ٣ ديسمبر ١٩٩٤م ـ فى صفحة التراث (ص ٢٠) ـ ثلاثة أعمدة بعنوان " صـفحة مـن تاريخ الفتوحات الإسلامية لمؤرخ أرمنى عاصر أحداثها مباشرة "، نشر دراسة تحليلية بناءة وطيبة للغاية عـن هذا الكتاب. وعن الأسقف والمؤرخ سيبوس أنظر: فايز نجيب أسكندر: أرمينيـة بـين البيـزنطيين والخلفـاء الراشدين (١١ـ٤٠هـ/٦٣٢ـ٦٦١م) - الإسكندرية ١٩٨٣ ـ ص ٧٢، ٧٩، ١٠٠.

(2) كان سبيوس شاهد عيان لأحداث القرن الأول الهجرى/القرن السابع الميلادى، إذ عاصر الكثير من الأحداث التى أرخ لها، واستمد بعض أحداث مصنفه من شهود العيان وبعض الأسرى كذلك استمد القليل من مادته التاريخيـة من بعض المصادر الخطية التى لم يعاصر أحداثها؛ لذا كان مصنفه مصدراً ثمينـاً لخلفائـه؛ فانقضـوا عليـه انقضاضاً لينقلوا عنه المادة التاريخية الثمينة التى لم يعاصروا أحداثها. للتفاصيل أنظر: فـايز نجيـب أسـكندر: المسلمون والبيزنيطون والأرمن، ص ١٤ـ٢٠.

(3) فايز نجيب أسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين، ص ٢٩ـ٣٠.

(4) فايز نجيب أسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن، ص ١٦. وقد جاء فى هذا المصـدر المعاصـر لظهـور الإسلام وبداية انطلاق الفاتحين المسلمين ما يلى:

A cette époque, il y Avait un des enfants d'ismael du nom de Mahomet, un marchand .. comme l'ordre venait D'en Haut, ils se rallierent tous"

" فى تلك الفترة ، ظهر شخص يدعى " محمد " ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان تاجراً من بنى إسماعيل عليـه السلام .. وقد أمره الله بتوحيد المسلمين ، والانطلاق فى فتوح ربوع العالم ".

(5) عن " جيفوند " Ghévond ومصدره " تاريخ الحروب وفتوحات العرب فى أرمينية " Histoire des Guerres et des conquetes des Arabes en Arménie أعددنا كتاباً بعنوان "الفتوحات الإسـلامية لأرمينيـة (١١-٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م) فى ضوء كتابات المؤرخ الأرمنى جيونوند - الإسكندرية ١٩٨٣.

الثامن الميلادى/ القرن الثانى الهجرى(1) ــ أن الفاتحين المسلمين كانوا ينطلقون فى فتوحاتهم " كالحية الطائرة "(2) فى حين يذكر المؤرخ المحدث جستون فييت Gaston Wiet ــ المستشرق الفرنسى المعروف ، والأمين الأسبق لمكتبة دار الآثار العربية بالقاهرة ــ أن المسلمين لم يواجهوا شعوباً متعلقة بحكامها ، ولا قادة حربيين فى استطاعتهم أن يستغلوا موارد البلاد الخاضعة لهم بحكمة ، ولولا ذلك لاضطر القواد أمثال عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما أن يعودوا القهقرى لفورهم إلى صحاريهم.(3)

والذى يهمنا فى موضوع الفتح الإسلامى لمصر هو تتبع علاقة عمرو بن العاص بالبطريرك بنيامين ، البطريرك المنتخب من الشعب المصرى والذى كان لا يزال هارباً فى دير فى أعالى الصعيد ، إذ اضطر هو وأساقفته إلى مغادرة عواصمهم هرباً من بطش كيرس ــ كما سبق أن ذكرنا ــ وبعد أن استتبت الأمور للفاتحين المسلمين وأصبح المصريون فى أمان من الخوف على عقيدتهم الدينية لتمتعهم بالحرية فى ظل السيادة الإسلامية، خاصة وأن عمرو بن العاص كان عادلاً فى حكمه ، رؤوفاً برعيته ، متسامحاً حتى أنه أثار دهشة المصريين وإعجابهم ، فقد أورد حنا النقيوسى فى هذا الصدد أنه " **لم يأخذ شيئاً من أموال الكنائس ، كما أنه لم ينهبها ، بل حماها طول مدة حكومته** "(4). لذا ، دانت له مصر ، واستتب له الحكم فيها خاصة وأنه تعهد للمصريين بأن يدع لهم حرية العبادة وممارسة شعائرهم الدينية وفق مذهبهم وحماية كنائسهم(5) ؛ كما يدع لهم حرية التصرف فى شئونهم القضائية والإدارية. ولم يكتف عمرو بذلك ، بل أقام بعضاً منهم مديرين لمختلف الجهات ، ولم يطالبهم بغير الجزية ، إذ ألغى

---

(1) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: المرجع السابق، ص ٣-١٣.

(2) فايز نجيب إسكندر: المرجع السابق، ص ٣٦؛ نجاة محمد الطلبى: ما بعد بلاط الشهداء – مملكة الفرنجة والفتوحات الإسلامية فى جنوب بلاد الغال – اليمن ٢٠٠١م – ص ٥٠.

(3) Wiet, G. précis de L'histoire d'Egypte, t. II, P. II, P. 115.

(4) كامل صالح نخلة: كتاب تاريخ النقيوسى ــ مجلة نهضة الكنائس ــ عددا ٧ ، و ٨ يوليو أغسطس ١٩٤٩م ــ ص١٥٠ ؛ عمر صابر عبد الجليل: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى ــ رؤية قبطية للفتح الإسلامى ــ القاهرة ٢٠٠٠م ــ ص٢٢٠.

(5) Vansleb., Nouvelle Relation d'un voyage Fait en Egypte Paris, 1658, P. 237.

الضرائب الفادحة التى كان أباطرة الإمبراطورية البيزنطية قد فرضوها على المصـــريين بغيــر رحمة.[1]

على أية حال ، كان زعيم المصريين المتحدث بلسانهم آنذاك رجلاً من أقباط مصر يدعى الدوق سانوثيوس ، أى الرئيس شنودة لكونه من بين قادة الجيش البيزنطى ، وكـــان مونـــوفيزى المذهب ، مشهوداً له بالاستقامة وحسن الراى والحزم ، إضافة إلى كونه مخلصاً للبابا بنيـــامين. فلما استقر الفتح الإسلامى فى الإسكندرية ، قربه عمرو بن العـــاص إلـــى مجلســـه ، فـــانتهز سانوثيوس فرصة انتعاش الكنيسة المصرية بعد اختناقها من شدة المحن والاضطهادات التى حلت بها مدة عشر سنوات ، وأخذ يمهد السبيل لإعادة البطريرك بنيامين إلى كرسيه بأن عرّف عمرو بن العاص بأسباب اختفائه[2] وحقيقة مقامه العظيم فى نفوس رعيته فرجا عمرو منـــه أن يبعـــث برسله إلى البابا الشريد ليطلب إليه أن يعود إلى مقر بطريركيته آمناً مطمئناً وكتب له أماناً وأقر عودته بناء على هذه الوساطة ولقد فرح المصريون بهذا التصريح ، وسارع رسل سانوثيوس إلى الصعيد ليبلغوا بطريركهم بما جرى إلا أن سانوثيوس نفسه كان يجهل مقره.[3] لذا كتب عمـــرو بن العاص أمر الأمان إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه:

" **الموضوع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمناً مطمئناً ، ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته ".[4]**

---

(1) القمص تادرس يعقوب الملطى: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، جـ٢، ص ١٧٦. أنظر أيضاً: Wiet, t. II, P. II, P. 129

(2) ساويرس: جـ ١ ، ص ٨٨. أنظر أيضاً: Duchesne, P. 425.

(3) ساويرس: جـ ١ ، ص ٨٨ ، كتاب السنكسار: جـ ١ ، ص ٢٥٠؛ السنكسار القبطى اليعقوبى: جـــ ١ ، ص ١٤٥. أنظر أيضاً: Duchesne, P. 425.

(4) ساويرس: ج ١ ، ص ٨٨. والجدير بالذكر أن أبا المكارم زودنا بنص مختلف جـــاء فيـــه: " فليظهـــر الشـــيخ البطريرك مطمانا [هكذا فى الأصل] على نفسه وعلى طائفة القبط جميعهم إلى الديار المصرية وغيرهـــا آمنـــين على نفوسهم من كل مكروه وتتمه المكتوب " أنظر: أبو المكارم: الكنائس والأديرة فـــى القـــرن "١٢" بالوجـــه القبلى ، جـ ٢ ، ص ١٠٦. وكذلك: السنكسار القبطى اليعقـــوبى ، جـــ ٢ ، ص ١٤٥ ؛ كتـــاب السنكســـار: جـ ١ ، ص ٢٥٠. علماً بأن السنكسارات التى استخدمتها فى البحث لم تذكر نص الأمان.

وخرج لمقابلة عمرو بن العاص ألوف الرهبان المقيمين فى وادى النطرون ، ودانوا لـه بالطاعة ، فأعطاهم عهد الأمان الذى ظل محفوظاً بدير الأنبا مقاريوس بهذا الوادى ؛[1] إذا أورد المقريزى أن عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر والإسكندرية ، خرج إليـه مـن أديـرة وادى النطرون سبعون ألف راهب للترحيب به ، وكتب لهم كتاباً بقى عندهم يؤمنهم فيه على أنفسـهم وحياتهم وأديرتهم[2] ونستخلص من نص المقريزى المبالغة العددية إلا أنها تدل على كثرة عـدد رهبان وادى النطرون من ناحية ؛ وسياسة التسامح الدينى التى كان يتمتع بها رهبـان الأديـرة عامة فى ظل السيادة الإسلامية من ناحية أخرى.

وقد انتشر عهد الأمان الذى أصدره عمرو بن العاص[3] حتى بلـغ مسـامع البطريـرك بنيامين ، فعاد من مخبئه ، وعاد إلى الإسكندرية فدخلها دخول الظافرين، وفرح الناس برجوعـه فرحاً عظيماً. وبلغت مدة غيابه عن الكرسى البطريركى السكندرى ثلاثة عشر عامـاً ، عشـرة منها تحت الحكم البيزنطى ، وثلاثة فى الظل السيادة الإسلامية.[4]

ولما ظهر بنيامن فى بابليون فى وسط شعبه حظى بترحيبهم الحـار وأعلمـوا بمجيئـه سانوثيوس ، فهم ليستقبله ويبلغ بكل ما جرى بينه وبين عمرو ، ثم اتفق معه على الموعد الموافق

---

(1) أورد العالم الفرنسى أميلينو Amélineau المتخصص فى تاريخ مصر فى العصر المسيحى أن نـص خطـاب الأمان محفوظ فى دير الأنبا مكاريوس أنظر:

Amélineau, E., Histoire des monastéres de la basse-Egypte, Paris, 1894, P. XXXII.

(2) المقريزى: الخطط ـ بولاق ١٢٧٠هـ ـ جـ ٢ ، ص ٥٠٧. وكذلك: عمرطوسون: وادى النطرون ورهبانـه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة ـ مذيل بكتاب تاريخ الأديرة البحرية ـ الإسكندرية ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.ـ ص٤٠.

(3) اتسمت البنود فى الشروط التى كان يعرضها الفاتحون المسلمون على سكان البلاد المفتوحة بالبعد تماماً عـن الإجحاف مقارنة بالبنود المفروضة من قبل البيزنطيين ونتج عـن ذلـك الترحيـب بالفـاتحين المسـلمين دون مقاومتهم، خاصة وأن سكان البلدان المفتوحة كانوا يعلمون تماماً أن المسلمين سوف يتركوا لهم حريـة العقيـدة والعبادة وممارسة الشعائر الدينية، فلا إكراه فى الدين للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: الفتوحات الإسـلامية لأرمينية، ص ٩٠، حاشية رقم ١٢١.

(4) ساويرس: جـ١ ، ص ٨٨ ؛ السنكسار القبطى اليعقوبى: جـ ٢ ، ص ١٤٥ ؛ كتـاب السنكسـار: ص ٢٥٠؛ تاريخ الآباء البطاركة ، ص ٥٠ ، أنظر أيضاً: الجريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، جـ٢ ، ص ٧٧.

لمقابلة القائد المسلم ، وأخذ له منه الأمان ، وأمر عمرو بإحضاره إليه بكرامة وإعزاز ومحبة واستقبله بما يليق بمقامه من الحفاوة والتكريم. فلما التقى الرجلان تحادثا ملياً فى جميع الشئون الخاصة بمصر ورفاهيتها ، فبادر عمرو باستشارة البطريرك اليعقوبى فى أحسن طريقة يتمكن بها من إدارة البلاد ، وسؤاله عن أنسب موعد لجباية الضرائب ، وكانت طلعة البابا بريئة تلوح عليه سيما الوقار والجلال والهيبة ، وكان عذب المنطق ، فى تؤدة ورزانة ، الأمر الذى كان له عظيم الوقع فى نفس عمرو لأنه حينما رآه أكرمه وقال لأصحابه بأنه لم ير فى بلد من البلاد التى فتحها المسلمون رجلاً مثله بين رجال الدين حسب قول ساويرس. فأجابه بنيامين بخطبة بليغة شكره فيها على حفاوته به ، تلقاها منه عمرو بالبشر والقبول: وقال له جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم. وأقامه أميراً على قومه ، وثبته فى كرسى ولاية الدين المسيحى فى مصر.(١)

ولقد كان لعودة البطريرك اليعقوبى بنيامين أثر عظيم فى حل عقدة مذهب المصريين. فخوفاً من اضطهاد كيرس ، اعتنق البعض المذهب الخلقيدونى. ولا شك أن الخروج من الدين أو المذهب كرهاً أو خوفاً لا يكون فى مبدأ أمره حقيقياً. فلما جلس هذا البابا ثانياً على العرش السكندرى ، انضم تحت لوائه المصريون ؛ كما جذب إليه أكثر الناس الذى أضلهم الإمبراطور البيزنطى هرقل وكيرس مبعوثه ، فعادوا ثانية إلى اعتناق المذهب المونوفيزى " وعادوا إليه بفرح ونالوا إكليل الاعتراف ". ثم نادى بنيامين المطارنة والأساقفة الذين اتبعوا المذهب الخلقيدونى أن يعودوا إلى مذهبهم المونوفيزى ، فلبى أكثرهم نداء البابا.(٢)

ثم إن اهتمام عمرو بن العاص باليعاقبة وصل مداه أيام البطريرك بنيامين ، إذ تركهم يستولون على معظم الكنائس الملكانية وكذا الأديرة. وبذلك جعلهم يبنون الآمال الكبار على المستقبل ، مما حدا بالأسقف المؤرخ " ساويرس بن المقفع " أن يصف شعورهم هذا بقوله:

---

(1) ساويرس: جـ١، ص ٨٨ـ٨٩ أنظر أيضاً:
W. Budge, The book of the Saints of the Ethiopian Church, translation of the ethiopic synaxarium, Cambridge, 1928, t. II, P. 472

(2) ساويرس: جـ ١ ، ص ٨٩ ؛ السنكسار القبطى اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ١٤٦. أنظر أيضاً: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها ، ص ١٧٦.

" كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلَّ رباطهم، وأُطلِقُوا على ألبان أمهاتهم ".[1]

وكان ساويرس على حق فى وصفه ، ذلك لأن المصريين لم يعاملوا بهذه المعاملة اللينة منذ أمد بعيد إذ عانوا الأمرين فى ظل الغزو الفارسي والسيادة البيزانطية. أضف إلى ذلك أن المسلمين أثناء ولاية عمرو بن العاص ، لم يحاولوا أن يضغطوا على المصريين ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهم ، وهذا التسامح الدينى ليس بغريب عليهم ، فقد أكده المؤرخ الأرمنى سبيوس ، المعاصر لأحداث النصف الأول من القرن الأول الهجرى ، إذ أورد فى مصدره أن المسلمين ــ حين فتحوا موطنه الأصلى أرمينية ــ **لم يفرضوا الإسلام على الأرمن بالقوة**[2] تمشياً مع ما جاء فى القرآن الكريم " **لا إكراه فى الدين** "[3]. كذلك اعترفت بهذا التسامح الدينى الذى خطى به الأرمن فى ظل السيادة الإسلامية على بلادهم ، دون أن ينعموا بذلك فى عهد السيادة الفارسية أو البيزنطية ، المؤرخة الفرنسية برنديت مرتان هيزار Bernadette Martin-Hisard أستاذة العصور الوسطى بجامعة باريس I. ففى بحث لها بعنوان " السيادة الإسلامية والحريات الأرمنية فى الفترة من القرن السابع الميلادى إلى القرن التاسع " ذكرت أ ن الحفريات الأثرية التى أجريت فى دوين[4] Dwin ــ عاصمة أرمينية أنذاك ــ أكدت أن المسلمين عاملوا الأرمن بالحسنى ، ولم يكرهوهم على اعتناق الإسلام. ودللت على صحة قولها هذا ، بما شهدته أرمينية من ازدهار واضح فى بناء الكنائس فى ظل السيادة الإسلامية واستخلصت ــ نتيجة هذا الدليل

---

(1) ساويرس: جـ١ ، ص ٩٠.

(2) فايز نجيب إسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن فى ضوء كتابات المؤرخ الأرمنى المعاصر سبيوس (١١ــ٤٠هـ/٦٣٢ــ٦٦١م) ص ١٦.

(3) القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

(4) " دوين " Dwin فى المصادر الأرمنية ، " دبيل " فى المصادر الإسلامية. وهى مدينة بأرمينية ، تتاخم أران. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق ، ص ٩٦ ، حاشية رقم ٢٠٢ ، الفتوحات الإسلامية لأرمينية فى ضوء كتابات المؤرخ الأرمنى جيفوند ، ص ٩٥ــ٩٦ ، حاشية رقم ١٤٥ ؛ أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (١٠٠٠ــ١٠٧١م/ ٣٩٢ــ٤٦٣هـ) فى منصف أريستاكيس اللستيفرتى ــ الإسكندرية ١٩٨٣ــ ٢٣١، حاشية رقم ٥٥٤ ؛ الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى ــ القاهرة ــ ١٩٨٨ ، ص ١٧ ، حاشية رقم ٤٩. الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج (جمهورية جورجيا السوفيتية) ــ القاهرة ١٩٨٨ ــ ص ١٢ ، حاشية رقم ٢٧.

المادى ـــ حرية الأرمن المطلقة فى ممارسة شعائرهم الدينية وفق مذهبهم ، وتشييد كنائسهم التى شهدت ازدهاراً معمارياً لم تشهده من قبل ، دون أية قيود مفروضة من قبل المسلمين. وعلقت برنديت على ذلك قائلة إن المسلمين الأول التزموا بهذا التسامح فى تعاملهم مع أهل الذمة فى كافة البلدان المفتوحة.(١)

وفى مصر ، سجل الرحالة " فانسلب Vanselb " الذى قام بزيارة مصر فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، أنه رأى على جدران الكنيسة المعلقة ، عهداً كتبه عمرو بن العاص بيده لحماية تلك الكنيسة ، ويلعن من يسعى من المسلمين إلى حرمان القبط منها ، إلا أنه يؤخذ عليه قوله إن القبط دفعوا لعمرو فدية عن تلك الكتب.(٢)

على أية حال ، لما درس عمرو بن العاص حالة مصر ، أدرك أنه من المستحيل عليه أن يجبى الضرائب دون معاونة أقباطها. فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يقول له ، لما كان المسلمون لا يعرفون البلاد المصرية معرفة تامة ، فإنهم لا يستطيعون حصر المبالغ التى يمكن جمعها من الضرائب ، وأنه استخدم لهذا الغرض قبطياً قديراً ونزيهاً ، على أن يحل غيره محله عندما يعرف حالة البلاد جيداً.

وفكر عمرو بن العاص أيضاً فى إيجاد أداة قد تكفل حسن سير العدالة ، وصرح بمساهمة الوطنيين الأقباط فيها فقسم البلاد إلى عدد من الدوائر ، وعين فى كل دائرة منها قاضياً قبطياً كلفه بفض الخلافات المدنية والدينية لغير المسلمين ، أما إذا كان الخلاف بين قطبى ومسلم ، رُفِعَ الأمر إلى مجلس مكون من قضاة الطرفين وكانت المسائل الجنائية من اختصاص القضاة المسلمين وحدهم.(٣)

ويذكر "ساويرس بن المقفع " أن عمرو بن العاص ـــ قبل قيامه بحملته لفتح الغرب ـــ استقبل البابا بنيامين وقال له: " **إذا صليت انت علىّ حتى أمضى إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر ، وأعود إليك سالماً بسرعة ، فعلت لك كل ما تطلبه منى** " فدعا له الباب

---

(1) فايز نجيب إسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن ، ص ١٦ ، حاشية رقم ٧.

(2) Vansleb, Nouvelle Relation d'un voyage fait en Egypte, Paris, 1698, P. 237.

(3) Amélineau, Fragments Coptes, p. 389; Duchesne, PP. 428-429.

أنظر أيضاً: القمص تادرس يعقوب الملطى: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها ، ص ١٧٦.

بنيامين بالتوفيق والنجاح. وبالفعل نجح عمرو فى فتح تلك البلدان ، وبعدها عاد إلـى مصـر ، واستقر فى الفسطاط التى كان قد اتخذها عاصمة له.(١)

على أنه قبل أن يغادر مصر ، أكد عمرو احترامه للمصريين بأن منح البطريرك بنيامين الحق فى بناء الأديرة والكنائس التى كان قد دمرها الفرس. وفرح البابا بهذه المنحة ، وأخذ يتفقد الأبنية ليعرف ما تهدم منها وما تبقى. وقبل وفاته ، دأب على تعليم رعيته ليطمـئن ضـميره ، كذلك سجل القوانين الكنسية والنظم الرهبانية.(٢)

هكذا حظى البطريرك بنيامين بحب الشعب المصرى له ، والتفافه حوله ، ودان له بالولاء الخالص ، فعم السلام الشامل ربوع مصر آنذاك وكان سانوثيوس قد كلف البابا بنيـامين ببنـاء كنيسة على اسم القديس مرقس ، ولكن الأجل لم يفسح له ، إذ توفى فى السابع عشر مـن ينـاير سنة ٦٦٢م. وكانت مدة رئاسته على الكنيسة المصرية تسعاً وثلاثين سنة.(٣)

هكذا نستخلص من سيرة البطريرك بنيامين الأول ، غيرة المصريين آنذاك على استقلال بلادهم ، وتمسكهم بعقيدتهم ومعتقداتهم المذهبية على وجه الخصوص ، وهمتهم دينيـاً ومـدنياً ، رغم الحوادث والحروب والاضطهادات الفارسية والبيزنطية التى حدثت فى تلك المرحلة المتقبلة من تاريخ مصر فسيرة ذلك البطريرك تعد صحيفة شرف للمصرين ، سداها الغيرة ، ولحمتهـا الإخلاص للوطن والدفاع عن العقيدة المسيحية على المذهب المنـوفيزى ؛ نسـتجلى مـن بـين سطورها أحوال مصر الداخلية من ناحية ، والدينية والمذهبية من ناحية أخرى ، وذلـك خـلال الفترة الممتدة من أواخر عهد السيادة البيزنطية إلى أوائل سنوات الفتح الإسلامى.

واتضح جلياً أيضاً أن المسيحية على المذهب المونوفيزى كانت أداة للتحـرر السياسـى والتخلص من نير الحكم البيزنطى ؛ إذ وجد المصريون فيها مجالاً ليقظـة قـوميتهم ، وتعبئـة مشاعرهم الوطنية بعد أن انهارت أو كادت تحت نير الضغط البيزنطى. لذا ، أيقظت المسـيحية

---

(1) ساويرس: جـ١، ص ٨٨.

(2) ساويرس: جـ١ ، ص ٩٠-٩١ ؛ السنكسار القبطى اليعقوبى، ص ١٤٥؛ كتاب السنكسار ، ص ٢٥٠. وكـذلك الجريدة النفيسة ، ج٢ ، ص ٧٧-٧٨ ، ايريس حبيب: السنكسار الجديد ، جـ١ ، ص ٣٥٥.

(3) ساويرس: جـ١ ، ص ٩١.

المونوفيزية فى المصريين شعورهم بأنفسهم ، وكان هذا عاملاً هاماً من عومل سرعة انتشارها وازدياد عدد معتنقيها.

لقد حمل بطاركة الإسكندرية عامة راية الجهاد المذهبى ضد الكنيسة المركزية فى القسطنطينية ومذهبها الخلقيدونى ، كما حمل أسلافهم من زعماء الإسكندرية الوثنية راية المقاومة ضد حكومة الإمبراطورية الرومانية. وكانت مؤازرة ومناصر الشعب المصرى لبطاركته ــ هى فى جوهرها ــ مؤازرة للحركة القومية ضد السلطات البيزنطية ، بل إن الرهبان المصريين وخاصة فى الصعيد الأعلى وليس فى الإسكندرية فقط ، عملوا على مقاومة الثقافة اليونانية.

ختام القول ، كانت المقاومة المصرية للسيادة البيزنطية فى أساسها ثورة قومية وطنية ، وإن اتخذت شكلاً دينياً.